كلمة العدد

أبعاد الصورة كما رسمها عاهل البحرين

بقلم سمو الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

في حديثه مؤخراً أثناء اللقاء مع وسائل الإعلام العربية تحدث عاهل البحرين الكبير جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة عن حقيقة الوضع على أرض البحرين ورسم العاهل الكبير بكل الصدق والصراحة والشفافية كل أبعاد الصورة حتى تكون الحقيقة – والحقيقة وحدها – متاحة أمام كل أصحاب النوايا الطيبة، بل وأمام العالم كله، بعد أن تحولت بعض الفضائيات وبعض وسائل الاتصالات التكنولوجية الحديثة إلى جسر لنقل الأكاذيب واللعب بالحقيقة وتصوير الساحة الطيبة على أرض البحرين بصور مغلوطة تخالف الواقع وتجافي الحقيقة وتخدم

بعض النوايا السيئة التي تريد بالبلاد شراً والتي تروج للكثير من الأكاذيب التي تخدم أهدافها والتي تحشد بالخديعة بعض الآراء المعادية على امتداد العالم كله . . لقد ألمح العاهل الكبير إلى بعض هذه القوى التي تريد زرع الفتنة في أرض لم تعرف طوال تاريخها سوى المحبة والتلاحم وصفات الأسرة الواحدة التي تعلي شأن المواطنة وتعتبرها أساس المصير الواحد والدرب السليم للتقدم وتحقيق الأمن والأمان . . كثيرون تحدثوا ويتحدثون ويصورون الأمور بصورة بعيدة كل البعد عن الحقيقة .

من هنا كان حديث عاهل البحرين ضرورة لتوضيح الأمور ولوضع كل أبعاد ما يجري على الساحة أمام نظر الباحثين عن حقيقة ما يجري . وقد تناول الحديث دوافع ما يجري وأبعاده وتداعياته . . أما الدوافع فلم تعد خافية على أحد . . قِلة قليلة تخدم أهداف دولة بعينها أطماعها في البحرين قديمة ومعروفة ولا تخفى على أحد خاصة والبحرين تمثل حائط الصد أمام هذه الأطماع وهو حائط صد لا يحمي مصير البحرين فقط وإنما يحمي كل ما وراء هذا الحائط على الساحة الخليجية والعربية كلها فالأطماع الخافية وإن كانت قد أصبحت واضحة للكثيرين هي الأطماع التوسعية للتيار القابع في شرق الخليج والذي لا يستهدف البحرين وحدها وإنما يمتد إلى الساحة الخليجية كلها .

هذا عن الأهداف . . أما أبعاد ما يجري فهو استخدام وسائل الإعلام الحديثة وخاصة (الفيس بوك)، ثم بعض العناصر المتربصة في أوروبا لإثارة موجة من الأكاذيب وتضخيم الحدث حتى يبدو أمام الرأي العام العالمي وكأن هناك مجزرة تجري على أرض البحرين وأن حقوق الإنسان مهدرة وأن النظام يعصف بالمواطنين وأن الشعب كله يرفض ويحتج ويحارب ويقاتل وغيرها من الأكاذيب التي يمكن لأي مراسل أن

يكتشف كذبها ويدرك أنها تجافي الحقيقة ويمكن لأي زائر للبحرين أن يرى أن وعي المواطن البحريني أكبر بكثير وأن إدراكه لما يحاك له وما يدبر لمصيره عميق وصادق وأنه يدرك جيداً أن الأطماع تحاصره وأن القلة المأجورة التي تعيش على الأموال الملوثة والتي تشتري بمبالغ باهظة بعض القنوات المشبوهة . . هذه القلة التي تعيش في ترف في كل أرجاء أوروبا إنما تعمل لخدمة أهدافها الخاصة وأطماعها المشبوهة والتي باعت ضميرها وتاجرت بأبناء وطنها وخدمت بعمالتها وخيانتها وممارساتها أطماع الآخرين الذين لا يريدون للبحرين خيراً والذين يهدفون لاختراق الصف الواحد المتماسك وضرب الوحدة التي تجمع بين أبناء الوطن الواحد الذي يحمي الجميع ويصون الجميع ويعمل بكل دأب وكد لتحقيق غد أفضل ومستقبل أكثر إشراقاً للجميع ولكل من يحيا على أرضه، ويؤمن إيماناً راسخاً بأن المواطنة هي الدرع التي تحمي اليوم والغد والتي توفر للجميع الأمن والأمان والاستقرار .

أما عن التداعيات فقد استغلت القوى المعادية ما توفره وسائل الإعلام الحديثة من انتشار في محاولة لربط ما يجري في البحرين بما جرى ويجري على الساحة العربية فيما يطلقون عليه (الربيع العربي) وهؤلاء قد تجاهلوا خصوصية البحرين . . فالبحرين بحجمها وتاريخها والسياسة التي تدير دفة الأمور فيها يمكن أن نطلق عليها بكل ثقة دولة الأسرة الواحدة . . فكل الحكام من آل خليفة والعاهل الكبير الحالي جلالة الملك حمد بن عيسى . . كل هؤلاء يحكمون البحرين بأسلوب الأب . . الأب الذي لا يفرق بين أبنائه والذي يفكر ليل نهار فيما يحقق لهم السعادة ويضمن لهم مستقبلاً مزهراً وغداً ينعم فيه الجميع بالسعادة والرخاء .

إن الحاكم في البحرين ليس إنسانا يعيش في برج عاجي أو في عزلة عن أبناء وطنه وإنما هو فرد منهم يشاركهم أفراحهم وأحزانهم يلتقي بالجميع ويستمع للجميع ويحتضن الجميع لا يفرق في معاملته بين سني وشيعي أو بين بحريني وغير بحريني . . يحس نبض الجميع ويبذل الجهد الخارق لإدارة الأمور بما يحقق مصالح الجميع وبما يجنب البحرين العواصف العاتية التي تعصف بالساحة العالمية والتي تثيرها بعض القوى الخارجية التي تستهدف اليوم وبصورة ملحوظة المنطقة العربية كلها والساحة الخليجية بصفة خاصة حماية لمصالحها وتحقيقاً لأطماعها وتمهيداً للطريق أمام إسرائيل المتربصة بالجميع إن تداعيات ما يشاع هو محاولة دفع البحرين للانخراط في مسلسل الفوضى التي تعصف ببعض المناطق والتي حولت شعـوبها إلى ضحايا وجوعى وخائفين .

إن تداعيات ما يشاع هو تصوير البحرين بصورة بؤرة للصراع لكي يهرب المستثمر وتهرب الاستثمارات وتهرب الأموال التي تستثمر في البلاد والتي تعود بالخير على الجميع . . إن تداعيات ما يشاع هو إثارة البلبلة والقلق حتى تصبح البحرين منطقة خطر وحتى يهرب السائح ورجل الأعمال وحتى يتم القضاء عليها كمركز لتجارة الترانزيت لصالح ما ترمي إليه إسرائيل من رغبتها في أن تكون مركز انتقال التجارة العالمية في الشرق كله . . إن تداعيات ما يجري خطيرة وكثيرة ويجب على الجميع إدراكها وإدراك ما ترمي إليه بعض القوى المعادية والتي يساعدها عليه قلة من الخونة والعملاء .

نأتي الآن إلى بعض الملامح في تصريحات عاهل البحرين أثناء لقائه برجال الإعلام . . لقد أكد العاهل الكبير أن الإعلام الغربي يحاول هدم الأمة العربية وهدم وحدة الخليج العربي وذلك يتمثل في الأخبار المختلقة

والموجهة التي نشرت عن البحرين في الأحداث الأخيرة في العام الماضي والتي صورت فيها وسائل الإعلام الغربية أن الشيعة في البحرين يواجهون دولتهم ويريدون إسقاطها لصالح إيران . . وقال العاهل الكبير أن الحقيقة هي أن قلة قليلة منهم هي التي كانت تهدف إلى ذلك وقد قاومتها الأغلبية الشيعية والسنية . . وأكد عاهل البحرين على أن البحرين دولة مسالمة لا تحب أن تعادي أحداً وهي دولة عربية تعتمد على عمقها العربي في مواجهة كل المحاولات التي تستهدف الخليج كله . . وعبّر العاهل الكبير عن عتابه للإعلام الغربي الذي أصبح يعمل ضمن منظومة تريد أن تغير الثوابت في العالم العربي لمصلحتها ومصلحة المخطط الذي يريد أن يطمس الهوية العربية، وتمنى العاهل الكبير أن يحاول هذا الإعلام التمسك بالحقيقة وأن يتحرى الدقة فيما ينشره ويروج له عن البحرين .

وقال العاهل الكبير أن الدول العربية لن تقف ساكنة أمام محاولات تغيير موازين القوى، وأنه لا يصح أن يكون هناك سلاح نووي في إيران دون أن يكون هناك مثله في العالم العربي . . وقال إن على العالم العربي أن ينتبه إلى ضرورة إنشاء قوة عربية رادعة للتفوق النووي في إسرائيل وفي إيران . . وأكد العاهل الكبير في لقائه إلى ضرورة الانتباه لما تقوم به إسرائيل في القدس من محاولات تهويدها وطمس هويتها وطالب بضرورة توحد الشعوب العربية والدول الإسلامية كلها، لمواجهة هذه المحاولات . . وقال أننا يجب ألا تلهينا أمور شكلية أو هامشية أو صغيرة عن الموضوعين الرئيسيين اللذين يهددان الأمة العربية وهما تهويد القدس وإنشاء قوة ردع عربية .

العلاقات البحرينية

**

ترتبط الشقيقتان الكويت والبحرين بروابط أخوية متينة وثيقة العرى ثابتة البنيان لا يمكن تفكيكها أو تفتيتها مهما كانت الظروف التي تمر بها والأحداث التي تتأثر بها، فهناك روابط القربى الكبيرة التي تشد الأسرتين الحاكمتين في كلا البلدين لبعضهما البعض، فلهما أصل واحد ونسب واحد، حيث تنتميان إلى نفس القبيلة – قبيلة عنزة العربية الكبرى من قبيلة العمارات أبناء تغلب بن وائل، فخذ (جميلة) فرع (شملان). وكانت عزوتهم وشهرتهم حين هجرتهم من موطنهم الأصلي – كما يقول الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة – واحدة هي [آلاد سالم] أي أولاد سالم، حيث انتصر آل صباح في معركة الرقة التي وقعت عام ١٧٨٢ وفتح آل خليفة البحرين عام ١٧٨٣م.

الكويتية

محاضرة للشيخ خليفة بن حمد آل خليفة

سفير مملكة البحرين لدى دولة الكويت



صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة
ملك مملكة البحرين



صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح
أمير دولة الكويت

وكانت البحرين آنذاك حاضنة للأسرة الواحدة (آل خليفة) و(آل صباح) والعتوب عموماً الذين كانت تجمعهم وتربط بينهم أعمق أواصر القربى والدم والمصاهرة، حيث يقول في ذلك المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة طيب الله ثراه :

هم جـدهم جـدي وجـدي لهم جـد

كما أن هناك ارتباط حضاري بين الكويت والبحرين يعود إلى آلاف السنين . . فحين نعود إلى حضارة مملكة دلمون في البحرين منذ ألفين وخمسمائة سنة، نرى امتداد آثارها الحضارية في جزيرة فيلكا، فهنا يتأكد لنا الارتباط الحضاري التاريخي منذ القدم بين البلدين الشقيقين، وأنا أقول في ذلك أننا نحب الكويت وأهل الكويت منذ ألفين وخمسمائة سنة .

ولم تكن هذه العلاقة في يوم من الأيام رهناً بفترة زمنية بعينها، ولكنها امتداد لإرث تاريخي عميق، أرسى قواعده الآباء والأجداد ويرعى تنميته والحفاظ على استمراريته الأولاد والأحفاد .

ويشهد لها التاريخ تميزها ونجاحها العريض في بناء دولتين عصريتين كانتا من أوائل بلدان المنطقة في الانفتاح على العصر والأخذ بالتعليم الحديث والأنظمة الدستورية والتشريعية وفيها نشأت أعرق تجربتين للممارسة الديمقراطية في منطقة الخليج .

فعلى مستوى القيادة، فإن العلاقة بين البلدين تعكس حالة التوافق التام بينهما في مختلف القضايا، ولا سيما الأجندة الخارجية والتعامل مع المستجدات الدولية . كما أن الرؤية المشتركة للقيادتين الحكيمتين تدفعان على الدوام بهذه العلاقات نحو المزيد من التقدم والازدهار، جنى ثمارها على مستوى القاعدة العريضة الشعبان الشقيقان اللذان تحصنا بأواصر المحبة والترابط والإيثار، شمل مختلف النواحي . لقد كان للبحرين أميراً وحكومةً وشعباً موقف مشرف مساند للحق الكويتي أثناء الغزو العراقي الغاشم، وقد خلد ذلك الموقف المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ عبد العزيز السعود الصباح طيب الله ثراه في قصيدة تاريخية بلاغية عصماء حين قال :

والضيق في دار الخليفـــة تبـدد	أهل الكرم والجود بيض الأيـادي
للشيخ عيسى كامل الفضل ينعـد	في موقفه شـاد الحضـر والبوادي
وآل خليفـــة مالهم جـار ينضـد	نالـوا شـرف آبائهم والاجـداد

كما كان لدولة الكويت الشقيقة نفس الموقف المشرف الأصيل عندما ساندت شقيقتها البحرين حينما تعرض أمنها الوطني للتهديدات الخارجية بإرسالها للبحرية الكويتية العسكرية لحماية مياهها الإقليمية، مما كان له أثر بالغ في استتباب الأمن .

وعلى المستوى التعليمي كان للبحرين السبق في افتتاح أول مدرسة نظامية وهي مدرسة الهداية الخليفية في المحرق عام ١٩١٩م، حيث كان للرعيل الأول من الأشقاء الكويتيين نصيب وافر في مشاركة إخوانهم البحرينيين في تحصيلهم العلمي، وبما أن للكويت السبق في حصولها على استقلالها الوطني عام ١٩٦١م، وإرساء قواعد المسيرة الديمقراطية في إقرار الدستور الكويتي من قبل المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ عبد الله السالم الصباح الملقب بأبو الدستور طيب الله ثراه حيث أخذت الكويت بنظام الغرفة الواحدة، كان السبق للبحرين في إجراء أول انتخابات بلدية في منطقة الخليج العربي بمشاركة المرأة بعباءتها ذات (المكس) .

وقد شهدت البحرين في العهد الزاهر لحضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك مملكة البحرين حفظه الله الذي ارتقى بمملكة البحرين إلى مصاف الدول المتحضرة والمتقدمة في تجسيدها لاحترام حقوق الإنسان وإعطاء المرأة كافة حقوقها السياسية في مشروعه الحضاري ميثاق العمل الوطني وإرساء الوحدة الوطنية والمسيرة الديمقراطية الحديثة التي تبلورت في مجلسي الشورى والنواب .

وعلى المستوى الاقتصادي تحرص القيادتين الحكيمتين على تعزيز آفاق الانفتاح الاقتصادي وتعزيز المناخ الاستثماري في البلدين الشقيقين، وزيادة حجم

التبادل التجاري بينهما، كما أن هناك شراكة اقتصادية بين العديد من المؤسسات البحرينية والكويتية، إضافة إلى اتفاقية الربط والتداول المشترك بين بورصتي الأوراق المالية في كلا البلدين . ولاشك أن كل ذلك يدفع باتجاه التكامل الاقتصادي بين البلدين باعتبار أن ذلك سيكون دعماً لمسيرة التكامل الاقتصادي في كل المنظومة الخليجية .

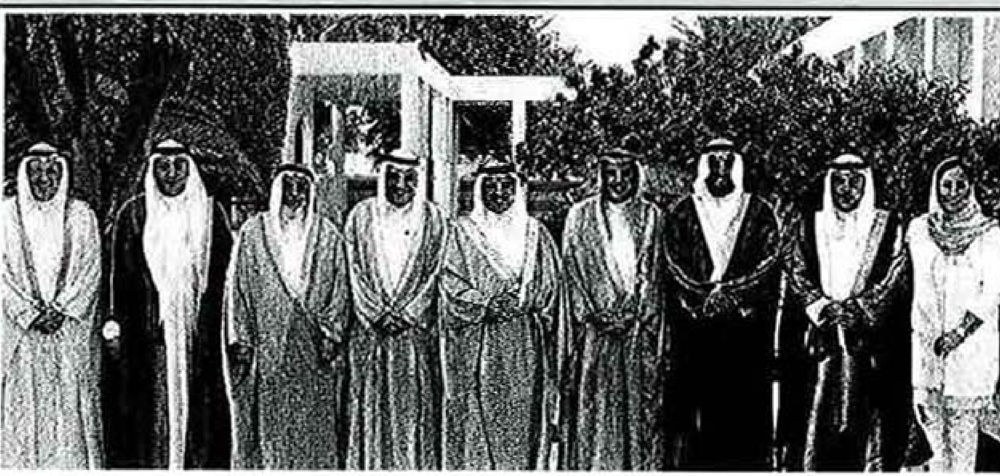
فحينما تنظر إلى دولة الكويت في العهد الزاهر لحضرة صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت الشقيقة نرى الاقتصاد الكويتي المتين متمثلاً في قوة العملة الكويتية، والاستثمارات ذات المردود الاستثماري الكبير الذي يفوق الأربع مليارات دولار، فإننا حين نتكلم عن إدارة الحكومة الرشيدة لهذه الاستثمارات الكبيرة تعطينا قراءة سياسية برشد الحكم في الكويت، كذلك صندوق الأجيال الذي أسسه المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح طيب الله ثراه الذي هو بمثابة ادخار استثماري اقتصادي لمستقبل الأجيال والذي يعتبر فكرة متقدمة سبقت بها الكويت الكثير من الدول المتقدمة والمتحضرة . ولا ننسى الحديث عن الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية وإسهاماته في دعم المشاريع في شتى أنحاء المعمورة . كما أن للكويت الفضل في فكرة إنشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وتفرد صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح في دعوته لإقامة القمة الاقتصادية

العربية على أرض الكويت الحبيبة الذي كان محورها الأساسي تنمية ورفاهية المواطن العربي .

في حين نرى في مثيلتها مملكة البحرين التي تزهو بالفكر الثاقب لحضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة حفظه الله في حسن استثمار موقع البحرين الاستراتيجي كمركز مالي وتجاري فاعل في المنطقة لجذب الاستثمارات وتطوير النظام المالي وتشجيع الحريات الاقتصادية بما يسهم في هذه الخطوة الكبيرة المباركة بمثابة بوابة الإصلاح الاقتصادي للبلاد واستكمال لمسيرة الإصلاح السياسي، تجسد في النأي بالعملة البحرينية عن الهزات الاقتصادية التي عصفت بالعالم، الذي انعكس مردوده الإيجابي على معيشة الأسرة البحرينية منذ الاستقلال وعلى مدى واحد وأربعين عاماً، هذا يعطينا قراءة سياسية مستقبلية راشدة .

وتتمحور منظومة مجلس التعاون في سلم أولويات جلالة الملك تجسدت في حرصه على مشاركته في القمم الخليجية .

وتعتبر العلاقات التاريخية المتجذرة بين مملكة البحرين ودولة الكويت الشقيقة التي تبلغ أزهى عصورها في عهد حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت الشقيقة وأخيه حضرة صاحب الجلالة ملك مملكة البحرين، حفظهما الله، التي تجسد تاريخاً طويلاً من الأخوة في أسمى معانيها وأجمل صورها



جلالة الملك حمد بن عيسى ملك البحرين يستقبل محمد جاسم الصقر رئيس لجنة الشئون الخارجية بالبرلمان الكويتي والوفد المرافق أثناء زيارة الوفد الودية للمملكة

وتعتبر نموذجاً يحتذى به للعلاقات حيث وصلت إلى مرحلة أضحت كافة المفردات السياسية عاجزة عن وصفها في تكامل فريد متميز كماً ونوعاً، والتعاون المشترك بين البلدين الشقيقين في كافة المجالات والأصعدة، حيث يولي العاهلان الكبيران جل اهتمامهما في تنمية واستمرارية ما يربط الشعبين والقيادتين من صلات وثيقة، تمثلت في تعييني كأول سفير لمملكة البحرين لدى دولة الكويت ينتمي إلى الأسرة المالكة والذي يرجع الفضل الكبير فيه إلى سيدي حضرة صاحب الجلالة الملك المفدى يقابله في الفضل حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت الشقيقة عندما قال لي حين تقديم أوراق اعتمادي لسموه : إنك تمثلنا في الكويت مثلما تمثل جلالة الملك .

وما مشاركتي اليوم في هذه المحاضرة إلا ثمرة لتمايز العلاقة بين القيادتين الحكيمتين في دولة الكويت ومملكة البحرين .

وفي الختام لا يسعني إلا تقديم الشكر والامتنان إلى الأخ العزيز معالي الشيخ أحمد الخالد الصباح نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع وإلى معالي الأخ العزيز الفريق الركن الشيخ خالد الجراح الصباح رئيس الأركان العامة للجيش وسعادة الأخ العزيز العميد ناصر الحسينان مدير كلية مبارك العبد الله للقيادة والأركان المشتركة وإلى جميع الإخوة العاملين على إعداد هذه الندوة، ولا يفوتني أن أخص بالشكر الجزيل معالي الأخت العزيزة الدكتورة الشيخة ميمونة الخليفة الصباح التي كان لها الفضل في إثراء هذه المحاضرة من النواحي الأكاديمية التاريخية .

المراجع :

١ – كتاب الكويت حضارة وتاريخ للدكتورة ميمونة الخليفة الصباح (ص١٦٢–١٧٣) .

٢ – رسالة جوابية من الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة إلى سيف مرزوق الشملان بتاريخ ذو الحجة ١٣٧٤هـ (منشورة في كتاب من تاريخ الكويت ص١٠٤) .

٣ – المقالة السابقة للشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة، الوثيقة، العدد الثالث، رمضان ١٤٠٣هـ الموافق ١٩٨٣م .

علاقات عُمان الدولية

١٨٠٤ — ١٨٥٦م



بقلم. الدكتور فاضل محمد الحسيني



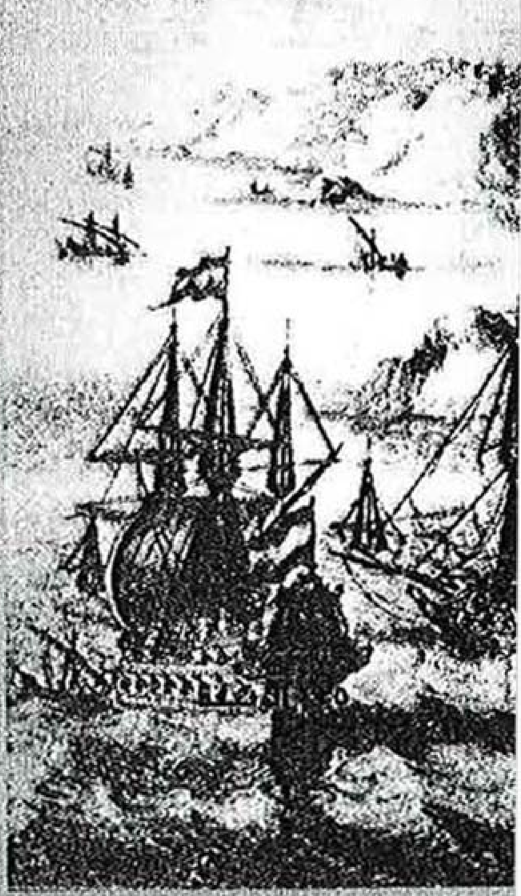
الوثيقة - ٢٤

AL WATHEEKA – 24

في عهد سعيد بن سلطان

تعد الحقبة الزمنية التي مرت بها عمان إبان حكم سعيد بن سلطان والتي تزيد عن نصف قرن، من الفترات التاريخية المهمة في تاريخ عمان الحديث، ويعود ذلك الأمر لسببين : أولهما الإنجازات الكبيرة التي شهدتها عمان خلال هذه الفترة وعلى مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية .

ثانيهما : شخصية السلطان سعيد وما تتسم به من قدرات قيادية وسياسية واقتصادية أهلته لأن يكون السبب الرئيسي في تحقيق تلكم الإنجازات التاريخية لعمان الأمر الذي جعل غالبية المؤرخين من العرب والأجانب يعدون عصره من أزهى العصور التي مرت بعمان خلال تاريخها الحديث كما يرونه من أبرز الشخصيات في أسرة البوسعيد والتي لعبت دورا متميزا في تاريخ عمان والخليج وشرق أفريقيا، بل ذهب البعض أكثر من ذلك فاعتبره من الشخصيات العربية المهمة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر(١)، لما كان يتمتع به السلطان سعيد من كفاءة وحنكة وإدارة فضلا عن همته العالية وبعد صيته(٢).



ومن أبرز إنجازات السلطان سعيد لعمان خلال فترة حكمه هي علاقاته الدولية إذ سجل عهده وضع الحجر الأساس للكثير من العلاقات العربية الدولية وبخاصة مع أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن البحث عند تناوله علاقات عمان مع أوروبا سيقتصر على بحث العلاقات العمانية مع كل من فرنسا وبريطانيا وأمريكا وذلك لأهمية علاقة هذه الدول مع عمان من جانب ولضيق مساحة هذا البحث من جانب آخر .

يتطرق هذا البحث إلى علاقات عمان الدولية خلال عهد السلطان سعيد من خلال المحاور التالية :

١ – العلاقات العمانية الفرنسية .

٢ – العلاقات العمانية البريطانية .

٣ – العلاقات العمانية الأمريكية .

معتمدين في إنجاز هذا البحث على أبرز المصادر والمراجع العربية والأجنبية والمحلية .

١ - العلاقات العمانية الفرنسية :

كانت أولى بوادر العلاقات العمانية الفرنسية قد سبقت عهد السلطان سعيد بل سبقت عهد البوسعيد برمته حيث بدأ الاهتمام الفرنسي بعمان عام ١٦٦٧م عندما اقترح دي لالين (Delalain) المبعوث الفرنسي إلى بلاد فارس السيطرة على عمان واتخاذها قاعدة بحرية مهمة لفرنسا[٣]، في الوقت الذي كان فيه التنافس الأوروبي على أشده في منطقة الخليج العربي من أجل التجارة

والمستعمرات[٤] . ولعل الاشتباكات التي حصلت بين فرنسا وبريطانيا – فيما بعد – في المياه الإقليمية العمانية إبان عهد أحمد بن سعيد دليل على ذلك .

لم يفلح الفرنسيون في الاستحواذ على عمان واتخاذها قاعدة بحرية لهم فلجئوا إلى احتلال جزيرة (موريشيوس) عام ١٧١٥م وقد أطلقوا عليها اسماً جديداً هو جزيرة فرنسا (إيل دي فرانس Ile de France)[٥]، واتخذوا منها قاعدة بحرية ومركزاً تجارياً ومقراً للاتصال بدول الخليج، وعلى ضوء ذلك تم الاتصال بين حاكم الجزيرة (مالارتيك) والإمام أحمد بن سعيد[٦]، وهكذا تشكلت أولى العلاقات الفرنسية العمانية والتي كانت تتسم بطابع الود والصداقة .

وعلى الرغم من أن هذه العلاقات قد تعرضت للأزمة عندما جرت الاشتباكات بين فرنسا وبريطانيا في المياه العمانية – كما أسلفنا – إلا أنها قد حسمت مؤخراً من قبل فرنسا عندما قدمت الاعتذار الرسمي لأحمد بن سعيد وقد لعب القنصل الفرنسي في بغداد (روسو) دوراً كبيراً في إعادة العلاقات الطيبة بين عمان وفرنسا[٧] .

استمرت العلاقات الفرنسية العمانية بعد وفاة أحمد بن سعيد إذ تولى ابنه (سلطان بن أحمد) حكم البلاد وقد تسلم رسالة دبلوماسية من نابليون يطالبه بإقامة علاقات متينة بين بلديهما وقد بعثها نابليون من القاهرة في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٧٩٩م، ولم يكتف نابليون بالرسالة فحسب وإنما أقدم على تعيين (دي كافينياك) كقنصل فرنسي في مسقط وقد وصلها فعلاً عام ١٨٠٣م لكن السلطان العماني ظل متمسكاً بوعده للإنجليز بالابتعاد عن الفرنسيين فرفض استقبال القنصل الفرنسي وأبقى على العلاقات التجارية بينهما فقط[٨] .

أما في عهد السلطان سعيد وهو ما يدخل في صلب بحثنا فقد بدأ عهده بخطوة نوعية غير مسبوقة حيث بادر شخصياً إلى إرسال ممثل عنه وهو (ماجد بن خلفان) إلى الجزيرة الفرنسية من أجل التفاوض والتوصل إلى عقد معاهدة بين عمان وفرنسا، وبالفعل توصل السلطان سعيد مع الجنرال الفرنسي (ديكان) حاكم جزيرة فرنسا (جزر القمر حالياً) لتوقيع معاهدة أطلق عليها (معاهدة السلام الدائم وعدم الاعتداء) بتاريخ ١٨٠٧/٦/١٥م(٩)، وقد تضمنت هذه المعاهدة اعترافاً بالحياد العماني في الصراع الذي كان قائماً بين فرنسا وبريطانيا وعدم التعرض للسفن العمانية، وكذلك تضمنت المعاهدة قبول عمان بوكيل تجاري فرنسي في العاصمة مسقط وقد تم بالفعل إرسال (المسيو ديلون) لشغل هذا المنصب في مسقط . كما عقد السلطان سعيد معاهدة تجارية عام ١٨١٧م مع حاكم جزيرة البوربون منحت فيها كل بلد منهما الأفضلية التجارية للأخرى(١٠) .

ومن المفيد الإشارة إلى أن تميز العلاقات الدولية خلال عهد السلطان سعيد يعود إلى عدم اكتراثه بتحذيرات بريطانيا وتهديداتها بعدم إقامة علاقات مع فرنسا والاقتصار في علاقات عمان التجارية والسياسية مع بريطانيا فقط والتي التزم بها بشكل أو بآخر الحكام العمانيون الذين سبقوا السلطان سعيد أو الذين جاءوا من بعده .

وهكذا استمر السلطان سعيد بتوطيد علاقات دولته مع فرنسا في مختلف المجالات ولكن هذه العلاقات التي بناها وتبناها السلطان سعيد بجرأة وإقدام سرعان ما انهارت عندما اندحر الفرنسيون في معركة الطرف الأغر فاستسلمت الجزيرة الفرنسية للإنجليز بتاريخ ١٨١٠/١٢/٣م(١١) .

ولقد ظل المحيط الهندي منذ ذلك التاريخ ولغاية عام ١٨١٥م مغلقاً بوجه الملاحة الفرنسية، ولم تتجدد الاتصالات بين عمان وفرنسا بعد ذلك لغاية عام

١٨١٧م حيث عادت العلاقات التجارية ثانية بين البلدين والتي توجت بالمعاهدة التجارية التي تم التوقيع عليها من قبل الطرفين في شهر آذار (مارس) من عام ١٨٢٢م وقد استمر العمل بهذه المعاهدة لغاية عام ١٨٤٤م إذ كانت خلالها العلاقات العمانية الفرنسية تتميز بالمتانة والتبادل التجاري الواسع(١٢)، حيث لم تكتفِ فرنسا بفتح قنصلية لها في مسقط فحسب بل أقدمت على فتح قنصلية فرنسية أخرى في زنجبار عام ١٨٣٩م بعد أن فتح السلطان سعيد لدولته عمان آفاقاً رحبة جديدة في أفريقيا وقد اتخذ من زنجبار عاصمة ثانية لدولته عمان . وقد وصل القنصل الفرنسي إلى زنجبار عام ١٨٤٠م ليزاول مهامه الدبلوماسية من هناك(١٣) .

لابد لنا من الإشارة إلى أن السلطان سعيد بالرغم من عدم اكتراثه لتحذيرات وتهديدات بريطانيا من إقامة علاقات تجارية وسياسية مع فرنسا إلا أن هذا الأمر لم يستمر في جميع الأوقات فهناك فترات معينة قد التزم سعيد بعض الشيء بالتحذيرات البريطانية ولم يتعمق في علاقات مع فرنسا ليس بسبب تخوفه وخشيته من بريطانيا وإنما باعتقادنا بالخوف على المصالح العمانية لأن السلطان سعيد قد أدرك ببصيرته النافذة بأن مصالح عمان مع بريطانيا أكثر تشعباً وفائدةً من فرنسا كما أن لديه تحالفات كثيرة مع بريطانيا ضد أعدائه في المنطقة فضلاً عن التزاحم والتنافس بين مصالح عمان وفرنسا في العديد من المناطق الأفريقية ولكن جميع هذه الأسباب لم تدفع السلطان سعيد لإغلاق الباب بوجه العلاقات الفرنسية العمانية مثلما كانت تريد ذلك بريطانيا، وإنما استمر في علاقاته مع فرنسا معبراً بذلك عن الصورة الصادقة للعلاقات الدولية ذات الاستقلالية والمعبرة عن تبادل المصالح بين البلدين، لذلك نرى السلطان سعيد قد استمر في إبرام الاتفاقيات مع فرنسا طيلة عهده، فقد عقد اتفاقية للصداقة مع فرنسا في السابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)

عام ١٨٤٤م تضمنت كذلك حرية التجارة لكلا الطرفين والتي نجم عنها ازدهار تجاري واسع بين البلدين أدى إلى انزعاج الإنجليز[١٤] .

توج السلطان سعيد علاقاته مع فرنسا خلال السنوات الأخيرة من عهده بتمتين العلاقات العمانية الفرنسية من خلال إرساله بعثة رسمية مصحوبة بهدية عمان والمكونة من مجموعة من الخيول العربية الأصيلة كهدية إلى رئيس الجمهورية الفرنسية عام ١٨٤٩م[١٥] .

وعلى العموم كانت العلاقات العمانية الفرنسية خلال عهد السلطان سعيد كما عبر عنها حفيده (رودولف سعيد) في كتابه (سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان) بأنه قد تم فيها إنجاز الشيء الكثير رغم الصعوبات العديدة[١٦] .

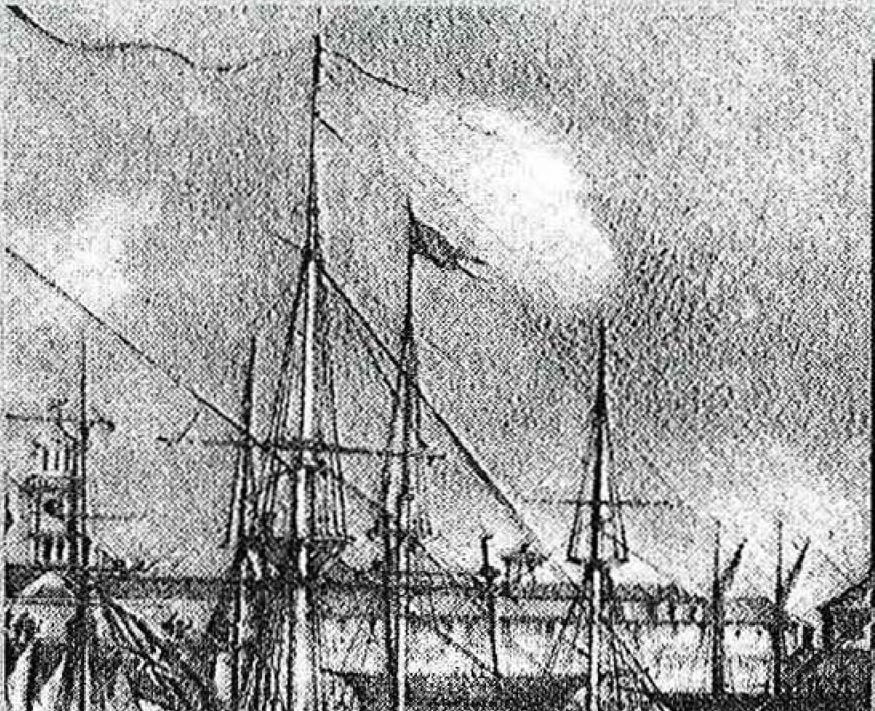
٢ - العلاقات العمانية البريطانية :

شهدت العلاقات العمانية البريطانية تميزاً ملحوظاً عن سائر العلاقات الدولية لعمان خلال تاريخها الحديث وعلى الرغم من أن أحمد بن سعيد مؤسس سلالة البوسعيد كان حذراً في التعامل مع البريطانيين وكثيراً ما رفض إقامة الصلات معهم لتخوفه من احتلال البريطانيين لبلاده خاصة وأن عهده قد تزامن مع انتقال الصراع من أوروبا إلى الخليج العربي وعمان بسبب حرب السنوات السبع وحرب الاستقلال الأمريكية[١٧] ، إلا أن بريطانيا بعد اعتبارها الهند الدرة اللامعة في التاج البريطاني، دفعها هذا الأمر إلى السيطرة على الطريق المؤدي إلى الهند وبما أن مسقط كانت تقع على هذا الطريق فقد حرصت على إقامة أفضل العلاقات مع عمان .

وبالفعل أقدمت بريطانيا على عقد معاهدة ١٧٩٨م مع السلطان (سلطان بن أحمد) والذي كان يعد أول حاكم عربي يرتبط بعلاقة مع البريطانيين[١٨]، على الرغم من أن السفن البريطانية التجارية والتي كانت تتجه من موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر وتعود إليها قد اتخذت من مسقط ميناءً للتوقف والتزود بالماء والمؤن قبل هذا التاريخ بوقت طويل[١٩].

وفي عام ١٨٠٠م أقدمت بريطانيا ثانية على عقد معاهدة مع عمان ومن الجدير بالذكر أن المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع عمان تختلف تماماً عن المعاهدات التي كانت تعقدها مع سائر إمارات الخليج العربي، تلك المعاهدات التي كان يطلق عليها اسم (المعاهدات الأبدية المانعة) والتي كانت تعد بمثابة فرض الحماية على تلك الإمارات بيد أن عمان لم تنضم لتلك المعاهدات وبالتالي اعتبرت دولة مستقلة ولو من الناحية القانونية، الأمر الذي أعطى الحق لعمان في أن تبرم العديد من المعاهدات مع مختلف الدول كما سنلاحظ ذلك في هذا البحث.

أما العلاقات العمانية البريطانية في عهد السلطان (سعيد بن سلطان) فقد ترددت بريطانيا أول الأمر في عقد معاهدة معه لأسباب عدة منها صلاته مع الفرنسيين إلا أن وقوع سفنها عرضة للانتهاك وتكبد تجارتها لخسائر فادحة جعلها تقدم على عقد المعاهدات مع عمان فضلاً عن رغبة السلطان سعيد في إقامة أمتن العلاقات مع بريطانيا أسوة بعلاقاته الدولية الأخرى كفرنسا مثلاً، الأمر الذي هيأ الأجواء لعقد معاهدة ١٨٣٩م بين البلدين[٢٠]، تلك المعاهدة التي تضمنت بنودها حرية التجارة والإقامة ونقل البضائع وعدم فرض ضرائب تزيد عن ٥٪ على البضائع البريطانية وإعطاء الحق للقنصل البريطاني في عمان في الفصل بين المنازعات التي تحدث بين الرعايا البريطانيين، ثم أردفت بعقد معاهدة أخرى بين بريطانيا وعمان وذلك في عام ١٨٤٥م كانت بنودها تنحصر



السفينة الحربية "ليفربول" المسلحة بـ ٧٤ مدفعاً أهداها السيد سعيد إلى الملك وليم الرابع

بمكافحة تجارة الرقيق، حيث تعهدت عمان بمنع تصدير واستيراد الرقيق سواءً في مناطق عمان الآسيوية أو الأفريقية[٢١]، كما حارب السلطان سعيد وفق هذه المعاهدة نشاطات القراصنة الأوروبيين الذين كانوا يمارسون تجارة الرقيق في بلاده، وكان لهذا الموقف ردود فعل إيجابية لدى الرأي العام العالمي يومئذ كما أشادت الصحف البريطانية ومجلس العموم البريطاني يومئذ بجهود سعيد في مجال محاربة تجارة الرقيق ومراعاته لحقوق الإنسان رغم الخسائر المادية الكبيرة لبعض التجار في دولته[٢٢].

تفيد لنا الوثائق التاريخية الإنجليزية بأن السلطان سعيد كان يعير اهتماماً فائقاً لعلاقاته مع بريطانيا إذ كان يشعر بأن مصالح عمان التجارية والسياسية تقتضي العامل الدبلوماسي العالي مع البريطانيين والاحتفاظ بصداقة طيبة ودائمة معهم لذلك كان سعيد دوماً يعتبر الإنجليز أحسن أصدقائه ويسره أن يلتقي في كل وقت بأي منهم وأن يحيطهم بكل رعاية ويبدي لهم كل اهتمام[٢٣].

لذلك كان السلطان سعيد يتحين الفرص للتعبير عن اهتمامه بالعلاقات مع البريطانيين وتقديره إياهم فقد قدم للحكومة البريطانية في عام ١٨٣٣م من أفضل السفن البحرية لديه وهي سفينة (ليفربول) التي بنيت في حوض السفن في بومباي بالهند عام ١٨٢٦م وكان طاقمها يتكون من مائة وخمسين بحاراً وضابطاً ومزودة بأربعة وسبعين مدفعاً وعلى متنها مجموعة من الخيول العربية الأصيلة وقد قبلها ملك بريطانيا (وليام الرابع) الذي أطلق عليها اسم (باخرة الإمام) تقديراً للسلطان سعيد وقد ردت الحكومة البريطانية بهدية للسلطان سعيد عبارة عن مركب من مراكب الأسطول الملكي والذي أسمته (الأمير الوصي)[٢٤].

كما بعث السلطان سعيد سفيره إلى لندن عام ١٨٤٢م وهو (علي بن ناصر والي ممباسا على السفينة (السلطانة) لمقابلة الملكة البريطانية فيكتوريا من أجل تمتين العلاقات الدبلوماسية بين البلدين[٢٥].

الواقع أن السلطان سعيد كان لا يفوت أي فرصة يعزز بها علاقاته مع بريطانيا بعد أن أدرك بأن دولته عمان بحاجة إلى دعم ومساندة الإنجليز له في مواجهة العقبات والصعاب الناجمة عن التحالفات في المنطقة والتي كانت توجه ضده[٢٦]، فضلاً عن حماية سفنه التجارية التي كانت تجوب منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي، الأمر الذي دفعه إلى توثيق العلاقات مع الأقطار الواقعة على المحيط الهندي ومع الدول الغربية لذلك كان يبتكر الوسائل والأساليب التي تدعم علاقة هذه الدول مع عمان ومن أبرزها وأهمها كانت بريطانيا، التي كانت هي أيضا بأمس الحاجة إلى دعم علاقاتها مع عمان حيث قال مرة الحاكم البريطاني العام في الهند بأن استقلال عمان يعتبر مصلحة مهمة من جانب بريطانيا[٢٧].

لقد توج السلطان سعيد تقديره للبريطانيين ورغبته في إقامة أمتن العلاقات معهم خدمة لمصالح عمان الكبرى في التجارة والسياسة أواخر عهده، بأن أهدى جزر كوريا موريا الواقعة قرب الساحل الجنوبي لعمان إلى فكتوريا ملكة بريطانيا في عيد ميلادها على الرغم من إلحاح بريطانيا على شراء هذه الجزر، حيث فوض الكابتن نريمانتل قائد السفينة الملكية البريطانية (جونو) بالتفاوض مع السلطان سعيد لشراء هذه الجزر لكن السلطان سعيد أصر على الإهداء دون مقابل وعلى ضوء ذلك تم عقد معاهدة تنص على إهداء هذه الجزر إلى بريطانيا من قبل السلطان سعيد في الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٨٥٤م[٢٨].

وتفيد المصادر التاريخية بأن الإهداء لم يستمر طويلاً حيث تم إبرام عقد لإيجار تلك الجزر للجانب البريطاني لمدة خمس سنوات[٢٩]، ومن الجدير بالذكر أن الفرنسيين سبق وأن طلبوا من السلطان سعيد شراء هذه الجزر لوجود السماد الطبيعي فيها ولكن السلطان سعيد رفض طلبهم[٣٠]، وهذا يؤكد ما أشرنا إليه في البحث من حرص السلطان سعيد على متانة العلاقة مع البريطانيين أكثر من غيرهم .

٣ - العلاقات العمانية الأمريكية :

لم تكن لعمان علاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية قبل تولي السلطان (سعيد بن سلطان) الحكم في عمان وذلك بسبب حداثة ظهور أمريكا كدولة مستقلة في المحيط الدولي إذ أعلن استقلالها عام ١٧٧٦م فضلاً عن تأخر اهتمام الأمريكيين بأقطار الخليج العربي والجزيرة العربية إضافة لسياسة العزلة التي انتهجتها أمريكا والتي دعا إليها مؤسسها الأول جورج واشنطن وأعلنها من بعده الرئيس جيمس مونرو في تصريحه الشهير عام ١٨٢٣م بدعوى التفرغ للبناء الداخلي وعدم الانغماس في مشاكل الآخرين[٣١]، لذلك يعد السلطان سعيد مؤسس العلاقات العمانية الأمريكية وتعتبر عمان أول دولة في منطقة الخليج والجزيرة العربية أقامت علاقات سياسية وتجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية وثاني دولة عربية بعد المغرب .

حملت السلطان سعيد عدة دوافع على إقامة العلاقة مع ما كان يسمى بالعالم الجديد منها أن الولايات المتحدة الأمريكية حديثة العهد، ولا يرتبط إقامة العلاقات معها بالتخوف من السيطرة أو الاستعمار كما هو الحال مع

بها بكل إخلاص أنا ومن يخلفني في الحكم، وتستطيع سيادتكم أن تطمئن بأن كل السفن الأمريكية التي ترسو في الموانئ التابعة لي ستلقى نفس المعاملة الكريمة التي تلقاها في موانئ بلادكم السعيدة التي يسود فيها الهناء، آمل من كل قلبي بأن سيادتكم ستعتبرونني صديقكم الدائم والحميم وإن صداقتي لسيادتكم لن تزول مع الأيام، بل ستستمر زيادة في الرسوخ(٣٧) .

لم يكتف السلطان سعيد بالرسالة إلى الرئيس الأمريكي فحسب بل تصرف على صعيد الواقع أيضاً بدبلوماسية عالية ومرونة فائقة حيال الجانب الأمريكي في القضايا والمسائل التي لم تدرج في لوائح المعاهدة مثل تخصيصه بناية كبيرة وجيدة للبعثة الأمريكية في عمان سمح للأمريكان بإنشاء وكالات تجارية في الأماكن التي يختارونها .

ومن الجانب الأمريكي، رحب الرئيس الأمريكي برسالة السلطان سعيد وبنود الاتفاقية حيث كان وقعها في عموم الأوساط الأمريكية طيباً لأن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر نفسها قد كسبت كثيراً حيث أصبحت مرتبطة بصداقة إحدى القوى الآسيوية الأفريقية التي تفخر بامتلاكها أسطولاً أكبر من الأسطول الأمريكي نفسه حيث كان الأسطول العماني مكوناً من خمسة وسبعين سفينة مختلفة الأحجام، كل منها مزود بعدد من المدافع تتراوح بين أربعة وخمسين وستة وخمسين مدفعاً، كما أن السفن التجارية العمانية وكما لاحظها المبعوث الأمريكي روبرتس بنفسه كانت تبحر شرقاً إلى الهند وسيلان وجاوة إلى جانب موانئ شرق أفريقيا .

لكننا لا ننسى أن الاتفاقية من الجانب الآخر، أي من الجانب العماني قد عززت أهمية السلطان سعيد في المحافل الدولية وأبرزت قدرته على الدخول

في اتفاقية مع دولة كبرى، الأمر الذي شجعه على تقوية العلاقات العمانية الأمريكية من خلال عرضه الامتيازات التجارية للأمريكان، وخاصة في شرق أفريقيا مقابل أن يقفوا إلى جانبه ويمدوه بالسلاح .

كما لا ننسى، أن هذه الاتفاقية مع دولة كبرى أعطته صفة الندية التي يستند إليها في مواجهة القوى الكبرى الأخرى مثل فرنسا وبريطانيا والتي مكنته من كسب مكانة دولية، ومنحت عمان سمة الاستقلالية وعدم التدخل في شئونها الداخلية، هذا الأمر الذي كانت تسعى إليه الكثير من الدول الآسيوية والأفريقية يومئذ[٣٨] .

هذا الذي تقدم ذكره كانت له فوائده السياسية من عقد الاتفاقية بين عمان وأمريكا، أما الفوائد الاقتصادية فهي كثيرة أيضاً فعلى الرغم من أن التعامل التجاري كان جارياً بين البلدين قبل توقيع المعاهدة وخاصة مع الجانب الأفريقي لعمان، إلا أن الأمر اختلف كثيراً بعد توقيع المعاهدة إذ ازدهر التبادل التجاري بين البلدين بشكل ملفت للنظر، فقد سجلت التقارير الأمريكية وصول ١٣ سفينة تجارية أجنبية إلى زنجبار بعد توقيع الاتفاقية من بينها تسع سفن أمريكية[٣٩] كانت تحمل العديد من البضائع المتنوعة والتي قد نزلت في الأسواق العمانية لأول مرة مثل القماش القطني الأمريكي المسنن الذي سرعان ما انتشر استعماله في عمان والخليج العربي والجزيرة العربية إلى جانب الأدوات المنزلية والساعات والأحذية وغيرها، مقابل ذلك كانت تحمل السفن الأمريكية من عمان القرنفل والعاج وجوز الهند والتوابل[٤٠] .

كذلك أفادت المعاهدة عمان فوائد عسكرية حيث ساعدت الولايات المتحدة عمان في تقوية دفاعاتها وتزويد أسطولها التجاري بالمعدات العسكرية لحمايتها

كما زودتها بالسلاح التي تمكنت به عمان من إخضاع (ممباسا) لسيادتها ويذكر لنا (مايلز) في هذا الصدد بأنه قد شاهد مدفعاً أمريكياً خلال زيارته لعمان عام ١٨٧٥م كان هذا المدفع من جملة المدافع التي اشتراها السلطان سعيد ضمن صفقة الأسلحة الأمريكية والتي تعاقد عليها مع الولايات المتحدة الأمريكية[٤١] .

استمرت العلاقات العمانية الأمريكية منذ عقد الاتفاقية بين البلدين عام ١٨٣٣م ولغاية منتصف القرن التاسع عشر تتسم بطابع الود والصداقة غير أنها تعرضت للاضطراب والأزمة أواخر عهد السلطان سعيد لأسباب شتى منها : الخلافات بين السلطان سعيد والأمريكيين حول مدى سلطة القنصلية الأمريكية في عمان على الرعايا الأمريكيين حيث فجر هذا الخلاف ارتكاب بحار أمريكي جريمة قتل بحق مواطن عربي كما حدث خلاف آخر بين الطرفين نجم عنه رغبة السلطان سعيد في تعديل المادة الثانية من المعاهدة لعام ١٨٣٣م والتي نصت على حق الأمريكيين دخول جميع الموانئ العمانية، بيد أن السلطان سعيد كان يصر على أنها تشير إلى الاقتصار على ميناء زنجبار الرئيسي فقط ولم تستجب الحكومة الأمريكية لطلبه في التعديل، وقد لعب القنصل الأمريكي في زنجبار (شارلس وارد) دوراً في سوء العلاقة بين البلدين، الأمر الذي أدى في النهاية إلى قطع العلاقات العمانية الأمريكية في شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٥٠م .

وبالرغم من أن السلطان سعيد كان حريصاً على استمرار العلاقات مع الولايات المتحدة – كما أسلفنا – إلا أنه قد اضطر لتجميدها، خاصة وأنه قد استنفذ جميع الوسائل لحل المشكلات التي أثيرت بين البلدين حيث بعث برسالة شخصية إلى الحكومة الأمريكية في أيلول (سبتمبر) عام ١٨٤٧م، إلا أنه

لم يتلق رداً عليها مما دفعه للتمسك بمطالبه ووقف العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية، لكن الأخيرة لم تستمر في صمتها طويلاً، وارتأت ألا تفقد صداقة عمان وسلطانها فأرسل الرئيس الأمريكي (ميلارد فيلمور) رسالة ودية إلى السلطان سعيد حملها مبعوثه (أوليك) حيث غادر القنصل الأمريكي السابق (وارد) عمان عائداً إلى بلاده . ومن المفيد الإشارة بأن المبعوث الأمريكي الجديد (أوليك) عندما وصل عمان في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٥١م اتصل بالتجار الأمريكان أولاً مستفسراً منهم عن طبيعة المعاملة التي يلاقونها في عمان فذكروا له حسن المعاملة لهم من قبل الحكومة العمانية بخلاف ما كان يذكره القنصل الأمريكي السابق (وارد) لحكومته، بعد ذلك سلم المبعوث الأمريكي الجديد (أوليك) رسالة الرئيس الأمريكي إلى السلطان سعيد ثم غادرها إلى أمريكا وهو يحمل أفضل الانطباع عن الحكومة العمانية وقد تابع القناصل الأمريكان في عمان منذ عام ١٨٥٢م مسئولية العمل على تحسين العلاقات العمانية الأمريكية، والمطلع على التقارير التي كتبها هؤلاء القناصل سيجد الكثير من الإشادة بروح المودة التي كان يبديها السلطان سعيد وأركان حكومته نحو الأمريكيين .

لقد ظلت الاتفاقية التي عقدت بين عمان وأمريكا منذ عام ١٨٣٣م سارية المفعول حتى عام ١٩٥٨م، ولم يعكر سريان مفعولها طيلة هذه المدة سوى هذه الفترة القصيرة التي تطرقنا لها قبل قليل، وقد استبدلت بعد عام ١٩٥٨م بمعاهدة جديدة للصداقة والتجارة[٤٢] .

إلا أن بداية العلاقات بين البلدين عام ١٨٣٣م كانت فاتحة للعلاقات العمانية الأمريكية الدائمة بشكلها الرسمي الموثق، ولازال الجانبان لليوم يذكران هذه البداية بكثير من الاعتزاز والتقدير والاحتفال بها[٤٣] . ولابد من الإشارة ونحن بصدد العلاقات العمانية الأمريكية إلى أن البلدين كانا يتبادلان

السفراء والقناصل والوفود الرسمية بينهما، وعلى سبيل المثال أرسل السلطان سعيد مبعوثه الخاص (أحمد بن نعمان الكعبي) إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٠م على متن سفينته المسماة (سلطانة) من أجل تمتين العلاقات العمانية الأمريكية وبهذا تعد عمان أول دولة عربية توفد ممثلاً دبلوماسياً لها إلى الولايات المتحدة الأمريكية[٤٤] .

كما بعثت الولايات المتحدة الأمريكية أحد رعاياها المدعو (ريتشارد ووترز) (Richard Waters) إلى عمان عام ١٨٣٦م ليكون أول قنصل أمريكي في مسقط .

وفي الختام لابد من القول بأن العلاقات العمانية الأمريكية إبان عهد السلطان سعيد قد عادت بالنفع الكثير لكلا البلدين إذ استفادت الولايات المتحدة كثيراً في حقل التجارة من جراء علاقاتها الجيدة بعمان، فقد تواصل الازدهار التجاري الأمريكي لأكثر من نصف قرن، حيث شهدت تجارتها مع عمان خلال السنوات التي امتدت من ١٨٣٣م لغاية ١٨٥١م تصاعداً مستمراً في الأرباح يفوق كثيراً أرباح التجارة البريطانية في عمان .

ومن جانب آخر استفادت عمان من علاقتها الجيدة بالولايات المتحدة الأمريكية إذ أن الوجود التجاري الأمريكي الكبير في عمان غذى الاقتصاد العماني كثيراً كما جعل من مسألة سيادة عمان واستقلالها إبان حكم السلطان سعيد أمراً ثابتاً لا يحتاج إلى نقاش وقد أشارت التقارير السياسية الصادرة عن الخارجية الأمريكية لعام ١٩٤٦م بأن السياسة الأمريكية تستند في علاقاتها مع عمان على واحدة من أقدم معاهداتنا التي مازالت نافذة المفعول وهي معاهدة الصداقة والتجارة لعام ١٨٣٣م .

كما أكد التقرير على أهمية العلاقات العمانية الأمريكية وأشار إلى أن الذكرى المئوية لهذه العلاقة قد أحييت في آذار (مارس) ١٩٣٤م وقد تميزت بزيارة قامت بها بعثة دبلوماسية أمريكية لمسقط كما أشار التقرير لما حدث عام ١٩٣٧م وهو استقبال الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت (Franklin Rosevelt) في واشنطن السلطان سعيد بن تيمور سلطان عمان وضيفه الخاص وخلص التقرير في النهاية إلى استقلالية عمان منذ عهد السلطان سعيد بن سلطان نتيجة العلاقات الدولية القوية التي عقدها هذا السلطان مع أمريكا وغيرها من الدول بخلاف المعاهدات التي عقدتها الإمارات العربية الخليجية الأخرى مع بريطانيا والتي وضعتهم تحت الحماية البريطانية[٤٥].

الاستنتاجات

توصلنا من خلال البحث إلى ما يلي :

١ – تطورت العلاقات الدولية لعمان كثيراً خلال حكم السلطان سعيد بن سلطان وبخاصة مع الدول الأوروبية كفرنسا وبريطانيا، كما شهدت علاقات جديدة تبرم لأول مرة مثلما حصل مع الولايات المتحدة الأمريكية .

٢ – لم يخضع السلطان سعيد خلال حكمه إلى رغبة البريطانيين في احتكار إقامة العلاقات معهم فقط، والتي خضعت لها بقية إمارات الخليج العربي، وعلى ضوء ذلك كانت تعد عمان دولة مستقلة ولو من الناحية القانونية .

٣ – ازدهرت العلاقات الدولية لعمان وتوسعت إبان حكم السلطان سعيد وذلك بسبب طموحه المتزايد، إذ أراد أن يرقى بعمان إلى مصاف الدول الكبرى

والمتميزة، وقد تجسدت بعض طموحاته على صعيد الواقع حيث اتسعت رقعة دولته لتمتد أطرافها بين قارتي آسيا وأفريقيا مما جعل بعض المؤرخين يصف دولته بالإمبراطورية، كما ازدهرت التجارة كثيراً في عهده فضلاً عن ضخامة أسطوله الذي كان يجوب البحار بين عاصمتي عمان يومئذ (مسقط وزنجبار) على الرغم من المسافة الطويلة بينهما والتي تربو على ألفي ميل، هذه التحولات الإيجابية لعمان فرضت على السلطان سعيد أن يخلق شبكة واسعة ومتشعبة ومتينة من العلاقات الدولية تمكنه من إدارة إنجازاته بنجاح ويسر .

د. فاضل محمد الحسيني

دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة بغداد / كلية التربية / قسم التاريخ

الهوامش

١ – العقاد، صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٨٣م، ص١١٦ .

٢ – اعتبر بعض المؤرخين السلطان سعيد من أبرز الرواد السياسيين في تاريخ آسيا وأفريقيا خلال القرن التاسع عشر للميلاد .

المغيري سعيد بن علي، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبد النعم عامر، عمان ١٩٧٩م، ص١٣٩ .

٣ – عمان في التاريخ، سلطنة عمان ودار إميل للنشر المحدودة، لندن ١٩٩٥م، ص٤٤٩ .

٤ – Agwani, M.S. The Gulf in the international politics from the beginning of the modern times to the end of the Second World War, Historical studies conference on Eastern Arabic, Published by Association of Arab, Historians, Doha, Qatar, 1976.

٥ – Skeet, Ian, Muscat and Oman the end of an Era, London, 1974, P. 40.

٦ – مايلز، س.ب.، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الرابعة، عمان ١٩٩٠م، ص٢٧٠ .

٧ – روث، رودلف سعيد، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان، ١٧٩١–١٨٥٦م، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، ١٩٨٣م، جامعة البصرة، ص١٣٩ .

٨ – الكردي، على عظم محمد عباس، العلاقات السياسية العمانية الفارسية، ١٨٠٦–١٩١٣م، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٩٨٩م، ص٢٦ .

٩ – هولي، دونالد، عمان ونهضتها الحديثة، ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحي، لندن ١٩٧٧م، ص٤٧ .

١٠ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٥١٩ .

١١ – ويلسون، أرنولد، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان ١٩٨١م، ص١٧١ .

١٢ – مايلز، مصدر سابق، ص ص٢٧١–٢٧٥ .

١٣ – روث، مصدر سابق، ص١٤٩ .

١٤ – محمد، جاد طه، تجارة الأسلحة في مسقط قديماً، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة الرابعة، الرياض ١٩٨١م، ص١٨٤ .

١٥ – نشرت هذا الخبر جريدة (الجبهة الوطنية) الفرنسية الصادرة بتاريخ ١٨٤٩/٨/٣٠م .

١٦ – روث، مصدر سابق، ص١٥٤ .

١٧ – صالح زكي، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤م، دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري، بغداد١٩٦٨م، ص٦٤ .

١٨ – المغيري، المصدر السابق، ص٢٥٧ .

١٩ – Parsons, Abraham, Travel in Asia and Africa, London,1808, P. 208.

٢٠ – Aitcheson, C.U, A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighboring Countries, Vol. XI, Delhi, 1833, P. 284.

٢١ – لامدن، روبرت جيران، عمان منذ ١٨٥٦م مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الثالثة، سلطنة عمان، ١٩٨م، ص١٩٨ .

٢٢ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٤٥٧ .

٢٣ – روث، مصدر سابق، ص١٦٥ .

٢٤ – المغيري، مصدر سابق، ص١٥٥ .

٢٥ – عمان في أمجادها البحرية، سلطنة عمان، سلسلة تراثنا العدد الثامن، ط ٤، ١٩١٤م، ص٦٠ .

٢٦ – عبيدلي، أحمد، الإمام عزان بن قيس . جوانب من التاريخ العربي الإسلامي في ظل الهيمنة الأوروبية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م، ص٥٩ .

٢٧ – هولي، مصدر سابق، ص٤٧–٤٨ .

٢٨ – مايلز، مصدر سابق، ص٤٥٧ .

٢٩ – المصدر نفسه، ص٤٥٨ .

٣٠ – ويلسون، مصدر سابق، ص١٧١ .

٣١ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٤٥٧ .

٣٢ – المصدر نفسه، ص٥٢٧ .

٣٣ – لوريمر، جون غوردون، دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة مكتب الترجمة بديوان أمير قطر، بيروت ١٩٧٠م، الجزء الثاني، ص٧٢٨ .

٣٤ – ريتشارد، ستيفنس، استعراض بداية العلاقات الأمريكية التجارية والقنصلية مع سلطنة عمان، مسقط ١٨٣٣-١٨٥٦م، نقلاً عن عمان في التاريخ، ص٤٥٩ .

٣٥ – روث، مصدر سابق، ص١٦٧ .

٣٦ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٤٦٠ .

٣٧ – المصدر نفسه، ص٤٦٠.

٣٨ – المصدر نفسه .

٣٩ – روث، مصدر سابق، ص١٧٠ .

٤٠ – هولي، مصدر سابق، ص١٨٧ .

٤١ – روث، مصدر سابق، ص١٧٢ .

٤٢ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٤٦٠ .

٤٣ – روث، مصدر سابق، ص١٧٣ .

٤٤ – العمري، أحمد حمود، عمان وشرق أفريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان ١٩٧٩م، ص١٢ ؛ عمان وأمجادها البحرية، مرجع سابق، ص٦٠ .

٤٥ – Memorandum Prepared in the Department of State (Secret) Washington, March 15, 1946, No. 7900004-946- Current U.S Policy toward Arab Principalities of the Persian Gulf and the Gulf of Oman.

الملاح العربي الخليجي

أحمد بن ماجد

ظلمه المؤرخون وأنصفه الجغرافيون





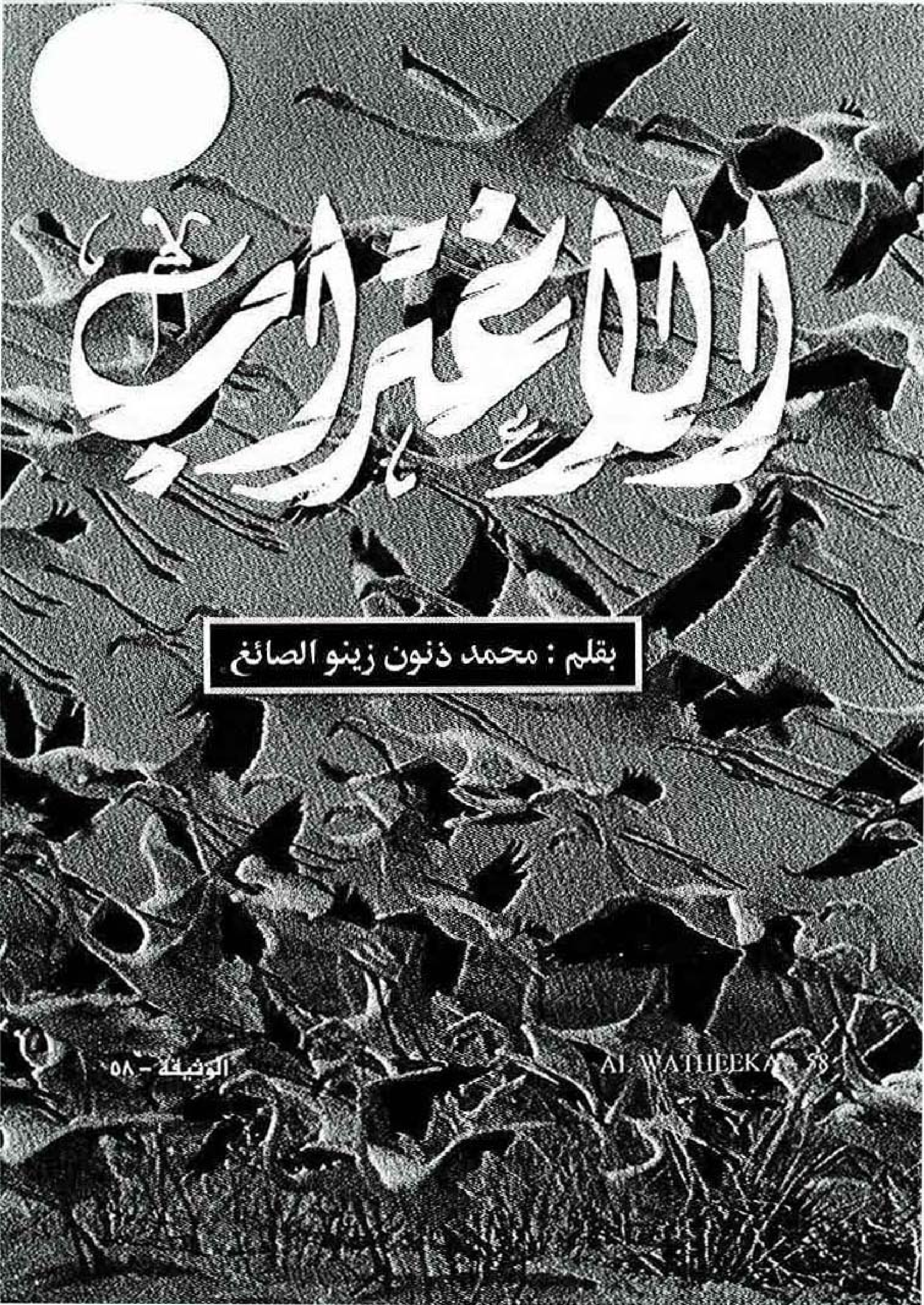
أسد البحار

بقلم : الدكتور فاضل محمد الحسيني

اشتهر العمانيون ببراعتهم كملاحين منذ بداية تاريخهم المدون في الملاحة والتجارة عبر العصور التاريخية، ووصفها المؤرخون القدامى بأنها بلاد الملاحة والشراع لأن أهلها أول من رفع شراعا في البحار واقتحم الأخطار فمارسوا الملاحة وكانوا الصلة بين الشرق والغرب[1].

هناك أمثلة كثيرة على ذلك منها رحلة "أبو عبيدة عبد الله بن القاسم" في منتصف القرن الثامن إلى كانتون حيث أكدت المصادر الصينية كذلك على وصوله إلى هناك، وذكرت بأنه في فترة وجوده كانت هناك جالية كبيرة من العرب المسلمين في الصين وأن مسجد كانتون الذي لا يزال قائما إلى اليوم يعد أقدم مسجد في الصين.




الاغتراب
بقلم : محمد ذنون زينو الصائغ
الوثيقة - ٥٨
AL WATHEEKA 58

ونشأة المدينة واليوتوبيا

ابتدأ الإنسان حياته باحثاً عن كهف ليستقر ويتزوج وينام ويأكل ويحمي نفسه فيه، وعلى جدران هذا الكهف سجل الإنسان تاريخه الخاص والعام، وسجل مخاطر وآمال ما هو خارجه .

كان الكهف بالنسبة له المجال الذي يتحكم بمشاعره ولولاه ما أمكنه التعرف على شيء خارجي وداخلي، نفسي واجتماعي، عام وخاص، وعندما وجد الكهف يلصقه أكثر بباطن الأرض في حين أن اتساع العالم الخارجي يفتح له مجالاً أرحب، ابتنى كهفاً فوق السطح ومد بصره باتجاه المحيط، وهنا أمكنه التعرف ثانية على أن مستويات النفس لا حد لها وأن باستطاعتها أن تصنع كهوفاً حتى لو لم تكن ثمة جدران ومادة .

وفي زوايا الكهف والتاريخ ابتدع الإنسان حرفيات القلق والخوف والحب والبغضاء والشجاعة والكرم والإنسانية، والأخلاق والمبادئ والسياسة والأسلحة والتدمير والسلام والعمل، وفي زوايا التاريخ صنع لنفسه جغرافية خاصة، وفي أعماقها اكتشف الإنسان أنه ليس مقذوفاً من كهف إلى كهف آخر، وإنما هو مقذوف من كهف إلى حياة سيعود بعدها إلى كهف، وخلال هذه المسيرة أيقن أن عليه عمل لا طائل من ورائه، وبحثه لاكتساب الوعي وتحسين وضعه ككائن يفكر ويعقل ويعمل لابد أن يستمر، ولكن ؟، في أبعاد رحلة الإنسان لاكتساب الوعي قبع في داخل كل إنسان كهف صغير تجمعت في زواياه وعلى جدرانه آلاف من الصور والحالات والإشارات التي يصعب على أي كائن آخر أن يبتدع مثلها .

واتسمت حياة الإنسان في تعامله مع المكان في العالم الخارجي بالعزلة أول الأمر، وشكلت هذه العزلة حياة البشر وفرضت عليهم أنماط سـلوك نابعـة منها . وكان الإنسان أول حياته على الأرض كائناً إنسانياً عندما أخذ يحول الطبيعة (بواسطة العمل) للوفاء بحاجاته، فقد كانت الطبيعة تحدد حاجات ذلك الكائن الأول وكانت تفرضها عليه . لكنه أخذ بالتدريج يتميز عن الطبيعة وينفصل عنها ويحدد حاجاته ويفرضها على الطبيعةالتي صارت بعدئذ (بالعمل الهادف) خادماً للإنسان . وبتعبير أدق فإن ظهور الإنسان على الأرض كان في طور متأخر من أطوار تطور الطبيعة، وظل ذلك الإنسان زمناً طويلاً وهو كائن طبيعي يتطور (من الطبيعة)، ولكنه أخذ بعد ذلك يتحول بعمله إلى أن يكون كائناً إنسانياً يتطور ضد الطبيعة . . وكان معنى التطور العملي الإنتاجي في تاريخ الإنسان القديم أن حل طبيعته الإنسانية محل طبيعته الطبيعية . . والحق أن هذه الطبيعة الإنسانية التي تطور إليها الإنسان القديم في تميزه عن الحيوانات وانفصاله عن الطبيعة، ليست سوى طبيعة (اجتماعية) في المقام الأول، إذ لم يستطع الإنسان القديم أن يواجه الطبيعة فرداً بل واجهها جماعة

. . ولم يستطع أن يعي نفسه إلا من خلال وعيه بعلاقاته الجماعية الاجتماعية .

ولم يخرج الإنسان من المملكة الحيوانية ويتميز عن غيره من الحيوانات إلا عندما بدأ يعمل ويصارع الطبيعة لينتج ما يفي بأغراض عيشه، فبينما يحاول الحيوان أن يكيف نفسه وفقاً لضرورات الطبيعة وقوانينها وقواها، وجه الإنسان جهده للتغلب على تلك الضرورات والقوانين والقوى وقهرها والتحررمنها بأن يكيف الطبيعة لنفسه ووفقاً لمتطلبات حياته . وفي الوقت الذي غير فيه الإنسان بالعمل الطبيعة وكيفها، أو ربما الأصح جزءاً كبيراً منها، طبقاً لأغراضه، فإنه خلق طبيعة ثانية، طبيعة إنسانية هي طبيعته هو(٥) .

في تلك المرحلة من حياة الإنسان التي سبقت تطور العلوم الوضعية والفلسفات الحديثة والإيديولوجيات الثورية والديموقراطيات والصناعة والتمدن، أي في مرحلة الصيد والجمع والالتقاط ثم بدايات الزراعة، في تلك المرحلة كان الإنسان يقضي حياته قانعاً بأنه يعيش في كون منظم بصورة موضوعية، وكان هذا الكون بالنسبة له موجوداً قبله وبمعزل عنه، أي وجوده مقرر سلفاً . وكانت قوانين الطبيعة أقدم منه اتخذت بالنسبة له طابعاً شبه مقدس، وكان الإنسان في المرحلة المذكورة يعيش في وجود هرمي، وكان عليه أن يطيع مجبراً قوانين هذا الهرم .

وفي تلك المرحلة أيضاً عجز الفكر البدائي عن استخلاص فكرة للمكان من تجربته للمكان، فالصور الذهنية للمكان لدى الإنسان البدائي هي صور مظاهر

---

(٥) ساعد الإنسان في تكيفه مع الطبيعة أول الأمر، وتغلبه على جزء كبير منها فيما بعد، ميزتان هما العقل المفكر واليد المنفذة، هاتان الميزتان هما من خصائص الكائن الإنساني واللتان تميز بهما عن بقية المخلوقات .

محسوسة تشير إلى أماكن ومواقع لها خصائص عاطفية وكأنها شيء حي، فهي مسالمة أو معادية مألوفة أو غريبة، فالإنسان الأول كان حين يواجه مشكلة ذهنية ضمن تعقيدات الحياة يدخل العوامل العاطفية والمشيئة، والنتائج التي يبلغها حينئذ ليست أحكاماً نقدية بل صوراً مركبة، فالفكر الميثولوجي يجد علاقات سببية فيما نعده نحن اقترانات فكرية .

آنذاك، كان الإنسان قريباً من طبيعته العفوية الأولى متطابقاً مع نفسه لم تؤثر فيه الاعتبارات التي ظهرت لاحقاً بفعل (نظام الملكية الفردية) المتنامية ضمن ملكيات أوسع تخص المجموعة البشرية التي ينتمي إليها، ففي سلوك ونشاط الإنسان الطبيعي الذي لم ينفرط في التناقض اللاحق بين الشخصية المتكونة والطبيعة، ليس هناك التمزق الذي يكشف عن الاغتراب بصورة صارخة، فقبل العصر الإغريقي بزمن بعيد جداً كان إنسان الشعوب البدائية يتمتع بعفوية طبيعية لا تعرف الاضطراب والتشتت، ذلك لأن تلك الشعوب لم تكن تعرف الملكية وكانت المشاعية تجسيداً لحياة فطرية منسجمة قائمة على التآخي الطبيعي بين البشر، وتمثلت المشاعية في ملكية الجماعة البشرية المشتركة للأرض وكذلك القوت، فالأرض في كل الشعوب البدائية تكاد تجدها ملكاً للمجتمع بأسره .

آنذاك أيضاً، سلم الإنسان واقتنع باستقرار المكان، وقناعته بثباته ووعيه بديمومته واستمراره من أهم القضايا التي دفعته إلى التركيز على المكان فأخضع الإنسان علاقاته الإنسانية ونظمه لإحداثيات المكان . ودفع تسليم الإنسان الأول باستقرار المكان في أول الأمر فضلاً عن العزلة، دفعاه فيما بعد إلى محاولة كسر طوق العزلة المفروضة عليه (بوسائل الاتصال) التي تطورت على مر العصور . حيث أحدثت الاتصالات الحديثة طفرات نوعية سريعة في انتقال الصوت والنبأ والصورة الفوري مما أدى إلى تغيرات شاملة في حياة الإنسان وسلوكه،

غير أن هذه الثورة الحديثة لم تغير من عزلة الفرد داخل مجتمعه، لا بل إن العزلة والاغتراب ازدادا مع تطور أنماط الحياة الحديثة، فقد خلفت العزلة المكانية متتاليات من القواقع المادية والمعنوية احتبس الإنسان داخلها، هذه القواقع التي خلفت حواجز وحدوداً عائقة في سعي الإنسان للاتصال بالعالم وبالآخرين استخدمها الإنسان في نفس الوقت لحماية ذاته . وهي دوائر اشتركت جميعها في مركز واحد هو (ذاتــه) . . فعاش الإنسان داخل جسمه الذي مثل الدائرة الأولى، ثم داخل منزله الذي مثل الدائرة الثانية، تليها دائرة الحي فالمدينة فالمقاطعة فالدولة فالعالم فالكون، كما عاش الإنسان في الوقت ذاته متتالية أخرى من الدوائر الاجتماعية العازلة تمثلت في نفسه وعائلته وقبيلته وجنسه وموطنه والإنسانية . وصاحبت محاولات الإنسان لاختراق كل هذه الحواجز ليلتقي بالآخرين والبشرية محاولات مضادة في الاتجاه تسعى للانعزال من كل ذلك لحماية النفس . . ونتج عن هاتين المحاولتين في هذين الاتجاهين المتضادين أن ظل الإنسان حبيس كل من هذه القواقع المختلفة رغم اختلافه الظاهر عن الآخرين، وما يبدو من انطلاقه في العالم الرحب يحادث ويصادق ويحب ويتعامل مع الآخرين، إلا أنه رغم ذلك وفي الوقت ذاته عاش في عزلة حقيقية عنهم نابعة من محاولته حماية نفسه من الآخرين، مما أدى إلى بقاء الإنسان داخل القواقع المغلقة بعضها داخل بعض رغم مظهره الخارجي الذي يوحي باتصاله وتوحده مع كل هذه المجموعات، وما يبدو من اختراقه لكل هذه الحدود .

لقد كانت محاولات الإنسان الأولى في اختراق حدود المكان والتجوال خارج إساره مدونة في رسومات الكهف، التي حاول الإنسان من خلالها الإطلال على الحياة، قائلاً ومستمعاً، معلماً ومتعلماً، متفاعلاً معها . . كان الكهف هو الغرفة الكبيرةالتي تحرك الكائن الإنساني بها، غرفة لم تتسع لوجوده الواقعي اليومي فحسب، بل ولأحلامه أيضاً، وعندما يفيض عليها وتفيض عليه ينشأ

خلدون) من الترف معياراً للانحلال والانقراض، فكلما كان الغلو شديداً في البذخ والترف، كان فناء الدولة أكيداً وسريعاً طبقاً لرأيه فعلى قدر نعمتهم وترفهم يكون إشرافهم على الدمار وعلى الفناء .

لقد ظهرت المدن والحضارات كحل للاستلاب والصراع الإنساني مع الطبيعة، ومع ظهور المدن والحضارات استحدث الإنسان نظام الملكية الخاصة التي أدت إلى اللاعدالة واللامساواة وأدت إلى المنازعات والحروب فشهدت البشرية ما شهدته من ويلات الحروب، وظهرت أيضاً العديد من الأعمال اليوتوبيةالتي اشترك معظمها في رفض (الملكية الخاصة)، والتنبيه إلى صلة هذه الملكية بالشرور والآثام بين البشر والحروب والمنازعات الدموية بين الأمم والشعوب .

هكذا أجاد أفلاطون(٤٢٧ — ٣٤٧ ق.م) في جمهوريته، تلك الجمهورية الخالدة التي جعلت موضوعات (العدل والجمال والحب) محورها الأساسي . . وتناولت المحاورات في هذه الجمهورية جميع القضايا التي تهم البشرية سابقاً والآن وإلى الأبد، كأممية البشر والأخوة البشرية والعدل والاشتراكية وتحسين النسل والحب الحر والتربية وتنظيم الدولة على أساس العدل . .وحفلت جمهورية أفلاطون بنظم التدريس لتخريج الفئات من الطلبة الذين يتسلمون أعمالهم ووظائفهم تبعاً لاجتيازهم مراحل الاختبار ويمتزج العلم بالموسيقى بالرياضة وبالهندسة في تشكيل عالم أفلاطون الخيالي الذي لايزال ملهما للبشرية في سعيها نحو العدالة والإخاء والحق لقد كان الوضع المضطرب الذي عرفته أثينا في (القرن الرابع قبل الميلاد)، هو الذي دفع أفلاطون لكتابة مؤلفه (الجمهورية) . .

وبعد جمهورية أفلاطون أتت (مدينة الله) التي صاغها فكر القديس أوغوستين (٣٥٤ — ٤٣٠م) لتكون مثالاً ثانياً يقتدي به المفكرون وبعد مدينة

الله كانت (اليوتوبيا) التي اشتهر بها المفكر (توماس مور) (١٤٨٧ — ١٥٣٥م) حيث صاغ هذا المفكر كلمة اليوتوبيا من كلمتين يونانيتين هما (Uo ومعناها لا) و (topos ومعناها مكان)، بحيث تعني الكلمتان معا (Uotopos) ومعناها اللامكان أو الطيب، وقد اختلف اللغويون والنقاد في تحديد مدلول الجزء الأول من هذه الكلمة وهل المقصود بها (اللاموجود أم الطيب أم المثالي)، وقد انتهى البعض إلى أنه بما أن العالم المثالي يكاد يكون فعلاً عديم الوجود، فلابد إذن أن كلمة "يوتوبيا" تحوي المعنيين معاً دون أن يخل أحدهما بالآخر. لقد ارتحل خيال السير توماس مور إلى جزيرة مثالية متخيلة أسس فيها نظاماً اجتماعياً وتربوياً يكفل السعادة والوئام للجميع، وقسم توماس مور "مدينته الفاضلة" إلى ما يقرب من خمسين مدينة تعيش في كل منها أسر متساوية في عددها ومتشابهة في أعرافها وتقاليدها . .

وتلت يوتوبيا السير توماس مور (أطلانطا الجديدة) لمؤسس المنهج التجريبي "فرانسيس بيكون" (١٥٦١ — ١٦٢٦م)، وصدرت محاولته هذه عن فلسفته التجريبية، فلم يبن بيكون مدينته على المثال الأخلاقي، وإنما أقامها على العمل وجعل حكمها للعلماء . .

وتبعت أطلانطا الجديدة (مدينة الشمس) للشاعر والقس الإيطالي "توماس كامبانيللا" (١٥٦٨ — ١٦٢٩م)، الذي جعل العمل الجبري أساساً في مدينته، والنبلاء هم العمال، وجعل حكمها للفلاسفة .

لقد وضعت في الأدب اليوتوبي مجموعة من التصاميم الثقافية وصف فيها الكتاب — الفلاسفة تصوراتهم عن الحياة السعيدة واقترحوا الوسائل لتحقيقها، فأفلاطون في كتابه (الجمهورية) اختار حلاً سياسياً، ووضع الفارابي كتابه

القيصرية وفظاعة "المدنية العالمية" وكشف عن مشكلة الإنسان في اغترابه وضعف دوره في صنع وتطبيق القرارات التي تخص حياته الشخصية والاجتماعية كإنسان .

وتحدث الاقتصادي الأمريكي المعاصر (كينيث بولدنج) في مقالته (موت مدينة) عن التفكك الذي تشهده المدينة الحاضرة نتيجة التطور المتسارع للقوى التكنولوجية، ويعتقد بولدنج بأن المدينة هي نتاج الحضارة والتي أنشئت لتكون بمثابة "نواة أمان" واطمئنان لساكنيها أصبحت بلا حول ولا قوة أمام الأسلحة الفتاكة المدمرة .

وهكذا وعى الإنسان المتحضر قصة المارد العجيب(٥٥) وفقد إيمانه بفردوس الأرض كما فقد من قبل إيمانه بفردوس السماء . فلم يعد يثق بما كان يثق به من أناجيل العلم، وحاول أن يرجع كرة أخرى إلى الإيمان الساذج القديم، ولكنه ما عاد يحمل سذاجة القرون الوسطى وإيمانها وهو ابن العلم والمنطق المادي الرتيب، لقد كتب عليه أن يقطع أسبابه بالسماء، وها هو ذا يكفر بوعود العلم بالسعادة والنعيم .

فوقف هذا الإنسان المتعلم المرهف الإحساس لهذه الأسباب وغيرها على صخرة الوجود وحيداً لا يربطه بالسماء إيمان ولا بالحضارة ثقة، ولم يجد نفسه في زحمة الحياة إلا مخلوقاً ضائعاً بلا عزاء يومئ إليه في السماء أو في الأرض . ولا وشيجة تربطه بغيره في ضجيج المدينة وزحامها ومن هنا بدأت من جديد غربته وبدأ اغترابه، فهو إنسان متعلم يقف على صخرة صلدة من

(٥٥) يقصد القنبلتان الذريتان اللتان ألقيتا على هيروشيما وناجازاكي

المادة . ولم يعـد يربطه بما حوله إيمان غيبي بقوى غير منظورة، بآلهة أو شياطين أو أي قوة أخرى لا تخضع للمنطق المادي ولا تجد على تلك الصخرة الصلدة غذاءها وأسباب وجودها، إنسـان لا يناجي النجـوم ولا يسـجد لتلك المشاعل الخالدة التي تومض في قبة السماء، أو يجد في مظاهر الحياة، في ارض النبت وتفتح أكمام الزهر، وفي الثمر والغيث والعواصف وبروق الغمام، إلا مظاهر مادية لها أسبابها وعللها مما يمكن أن ينتظمها إطار آلي لا روح فيه، ومن هنا نبع أيضاً وبعمق اغتراب الإنسان المتعلم المتحضر الحديث .

في رواية "هـ. ج. ويلز" المسماة (آلة الزمن) نقرأ : "أم من سنن الطبيعة التي نغضي عنها عادة، هي أن خصب العقل هو جزاء التحول والخطر والمشقة، والحيوان الذي يتطابق تطابقاً تاماً مع بيئته يعود آلة ليس إلا، والطبيعة تبعث العقل وتستحثه إلا إذا أصبحت العادة والغريزة عديمة الجدوى، ولن تجد ذكاءً حيث ليس هناك تحول ولا حاجة إلى القول) . .

حاول ويلز في آلته أن يستشرف نهاية الإنسان والحضارة الإنسانية على الأرض من خلال رؤياه الخاصة لتعامل الإنسان مع البيئة على امتداد الحقب القادمة وما ستمثله من صراع الإنسان مع البيئة المحيطة سيما الطبيعية منها . وسواء أكنا متفقين مع ويلز في رؤياه لمصير الإنسان أم لم نتفق، إلا أن هذه الفقرة تلخص قانوناً هاماً وفاعلاً من قوانين تطور الإنسان على جميع مستوياته البيولوجية والفكرية والروحية، فالمحرك التاريخي للتحولات الحضارية في حياة الإنسان هو حاجة الإنسان للإرتقاء والحاجة إلى التطور هي الدافع للتطور والحاجة للتحول هي الباعث على الحول .

المصادر

١ – إبراهيم جنداري، هامشية المكان في رواية غانم الدباغ (ضجة في الزقاق)، مجلة الأديب المعاصر، العدد ١، بغداد ١٩٩٣م .

٢ – باتريك ماسترسن، الفلسفة والدين والاغتراب من الكوجيتو الديكارتي إلى فيورباخ، مجلة الفكر المعاصر، السنة الأولى، العدد ٤ و٥، بيروت ١٩٧٤م .

٣ – جوزيف أ. كاميليري، أزمة الحضارة (آفاق إنسانية في عالم متغير)، ترجمة : د. فيصل السامر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية، طبع دار الحرية، بغداد ١٩٨٤م .

٤ – حسام الدين الألوسي، الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم، مجلة عالم الفكر، المجلد ٨، العدد ٢، الكويت ١٩٧٧م .

٥ – سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، ط ١، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥م .

٦ – د. طارق إبراهيم حمدي، الردود السلبية للمدنية المعاصرة، دار الشئون الثقافية والنشر، بغداد ١٩٨٦م .

٧ – عزيز السيد جاسم، تأملات في الحضارة والاغتراب، ط ١، دار الشئون الثقافية والنشر (آفاق عربية)، بغداد ١٩٨٦م .

٨ – د. عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية (دار الرشيد)، بغداد ١٩٨٠م .

٩ – عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، ط ٢ دار العودة، بيروت ١٩٧٩م .

١٠ — د. عبد الجليل الطاهر، مسيرة المجتمع (بحث في نظرية التقدم الاجتماعي)، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٦م .

١١ — محيي الدين إسماعيل، الفكر والمعاصرة، ط ١، دار الشئون الثقافية العامة (وزارة الثقافة والإعلام)، بغداد ١٩٨٩م .

١٢ — منيب محمد البوريمي، الفضاء الروائي في رواية الغربة (الإطار والدلالة)، دار الشئون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، ودار النشر المغربية، بغداد ١٩٨٣م .

١٣ — ياسين النصير، المكان في الرواية، مجلة آفاق عربية، السنة ٥، العدد ٨، بغداد ١٩٨٠م .

١٤ — يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة ١٩٤٦م .

* تأكيد المستشرقين على أن البرتغال هي السبب في تطور مسقط : خطأ تاريخي فادح
* عمان ساهمت على امتداد تاريخها الطويل في صنع الحضارة الإنسانية

إحساس يسري فيك بأن هذه المدينة جادلها التاريخ أكثر من أية حاضرة أخرى في الزمن القديم وحاورتها الأيام أكثر من أية مدينة معاصرة على شاطئ الخليج واتخذت منها الأحداث مسرحاً أكثر من أي مسرح آخر في اكتشاف معادن الشعوب .

تتجلى مسقط بشخصيتها التي حدد التاريخ ملامحها على مر العصور أو هي التي شكلت كثيراً من معالم هذا التاريخ في المنطقة على تعاقب الأزمنة باعتبار أن التاريخ هو ظل الإنسان على الأرض . . وأنه قد أوقف عليها رجالاً أضافوا إليها الكثير بأعمالهم ومآثرهم . وبالتالي تحركت الجغرافيا حين صارت مسقط مركز الثقل السياسي والاجتماعي والاقتصادي منذ الربع الأخير من القرن الرابع عشر على أساس أن الجغرافيا هي ظل الأرض على الزمان .

واحتفظ التاريخ لمسقط في ذاكرته بصفحات من أسفار المؤرخين تجاوزت مجرد الإشارات لتصير أكثر تحديقاً وتوصيفاً لمسقط التي تعد مسرحاً لكثير من الحوادث والأحداث والعديد من التحولات الكبرى في تاريخ عمان بل في تاريخ المنطقة البعيد منه والمنظور حتى لتعتبر مسقط صاحبة أطول تاريخ من حيث كونها العاصمة دون المدن العمانية التي تنقلت فيها العاصمة كمبنىً ومعنى .

***

هنا مسقط . . ؟! لكن عن أي مسقط تتحدث وتتساءل ؟ أتريد مسقط المدينة ذات الخمسة كيلومترات حدودا ؟ .

أم تريد مسقط المحافظة ذات الولايات الست ؟ ثم أية وجهة أنت موليها في مسقط العاصمة والسياسة والتاريخ والجغرافيا والمعنى والمبنى والسياحة والجمال والاقتصاد والبحر والتكنولوجيا والفلكلور والناس والإنسان والحاضر والحضارة .

ثم من أي باب تود الولوج إليها ؟ أتدخل غلافها الأرضي . . وأنت القادم من مطار السيب الدولي، عبر شارع السلطان قابوس الذي يشكل شرياناً يتدفق بالحركة ليل نهار، ليفضي بك إلى أكثر من طريق، وأكثر من خط في شبكة المواصلات التي تحتوي مسقط، كما تحتوي كل عمان، حتى أن تعبيراً مثل (المناطق النائية) قد أصبح في عداد الأشياء المفقودة، وما أجله من فقدان ؟ .

أتخطو إليها من كورنيش (مطرح) الذي تستلقي عليه تشكيلات جمالية تجعلك تتمهل الخطى، وتهمل كل ما يحول بينك وبين الاستمتاع باللامحدود، ساعة أن تستغرقك نظرة البحر وصفحة المحيط ؟ .

أم تود الدخول إليها من الجبال الشاهقة بالوادي الكبير، بكل ما فيها من صلابة وصلادة، وتوحش وعناد، وقد أصبحت مستأنسة بعد أن أسلست قيادها طوعاً وكرهاً، وسلمت أمرها للإرادة الإنسانية، واستسلمت لمقدرتها على تسخير التكنولوجيا للجيولوجيا، وهل مثل فندق قصر البستان، أحد أكبر عشرة فنادق في العالم، مثال يقف شاهداً حياً على مهادنة قلب الجبل ليرق ويتلطف ؟ .

أم تدلف إليها منسلاً من بين ضجيج التكنولوجيا والإلكترونيات في الحي التجاري، الذي يئز بالبنوك والأوراق المالية، وينز بالحركة الاقتصادية، ويتجمل بالأسواق التقليدية، ويبرق بالمراكز التسويقية الحديثة، ويحتوي الجنسيات المتعددة والمتباينة، حتى لتشعر أنك في منطقة عالمية : الناس بما في أياديهم، وأزيائهم، واتجاهاتهم وميولهم وألوانهم، وأصدائهم وكل منهم لابد وأن وراءه قصة، وأن في نفسه حكاية، وأن بداخله أشواقاً وعذابات .

شخصية مسقط

أينما وجهت وجهك في مسقط، وأرسلت البصر هنا وهناك، ستناظر عيونك جملة تحسها وتستشعرها، وتظل تتهامس بها "أنت في عاصمة عصرية أصيلة" بكل الظلال التي تلقيها هذه العبارة المتمثلة في تشكيلات حاضرة ومتنوعة، وأشكال حضارية متباينة، دولة لا تحبس نفسها في غرفة القديم، ولا تهرول في شارع الحديث .

إذا كنت تبحث عن المدينة (المودرن) فإنها مثل كل المدن في الدنيا، فيها كل ما يجعل العالم بين يديك، وعند أطراف أصابعك، ربما تبدو الدهشة من كون هذه المدينة بردائها الحديث، قد اختصرت الزمن في غضون سنوات معدودات، لتلتحم من جديد بسفينة التقدم وركب التطور، وتلتئم جراحها وهي التي نزفت طويلاً، لكنها تجاوزت هـذه النظرة لتستقر على شاطئ العطاء .

أما إذا كنت تؤثر الخصوصية، وتريد التميز في البحث عن شخصية المدن، فتعال إلى المسافة المتحركة في مدينة مسقط، بين الحاضر والحضارة .

حين تتحرك في جنبات مسقط يمكنك أن تتسمع صوت التاريخ بنفسك، ويحدثك هو عن نفسه، مثلما يحاورك الحاضر وتتبادل معه الحوار الحي، هذا ملمح قديم يعانق ملمحاً حديثاً، وذلك حي عريق يبدأ بومضة معاصرة، أما ذلك فميدان أبدعته اليد الحديثة، لكن بداخله شيء من الماضي البعيد، ومن ثم تشعر بالحيرة الجميلة، من أين تبدأ حركتك في مسقط عاصمة سلطنة عمان، ومفتاحها المسكون بالتجليات، ورمزها المشحون بالدلالات .

فيها التاريخ المنظور وسطوره التي تمد الحاضر بقوة تدفع إلى الغد . فيها الحضارة التي تتحدث عن نفسها بشواهدها ومشاهدها، فيها السياسة التي هي فن تحريك الجبال، والتي تتجلى بالرؤية والرؤيا . فيها رحيق الأصالة تمتد موجاته لتذوب في عبير الآني، وتمتد إلى الآتي . فيها الجديد يتجاور مع القديم ويتحاور، فإذا النفس تصغي إلى سيمفونية من الفعل البشري الإرادي . فيها التحديث ومعالمه، والعصرنة وعوالمها، والعمران ومتطلباته، ويده التي تكحل عيون المدينة بتشكيلات جمالية لا تخطف الأبصار إنما تريح هذه الأبصار . فيها . . وفيها . . وفيها . . .

أول مشهد في العيون

لحظة أن تخبرك المضيفة بأن الطائرة تحلق الآن في الأجواء العمانية، وقبيل أن تهبط في مطار مسقط الدولي، تلتقط عيونك إذا كان الوقت نهاراً مجموعة من سلاسل الجبال التي تتماوج مع حركة الطائرة، أو تبرق في ناظريك، إذا كان الوقت ليلاً، موجات من الضوء المنبعث من مسقط : المدينة التي تشكل موجة دافئة في حضن الخليج .

اللون الأخضر في معزوفة من الجمال البريء، والتاريخ الثقافي العريق، الذي يتجاور مع عراقة مدينة مسقط، التي تبعد عنها في المسافة ثلاثين ميلاً، وفي الوقت عشرين دقيقة .

لأن المدن مثل الناس

لنقطع هذه المسافة الآن بسرعة مؤقتة، وعيون الكاميرا تتوهج بالتقاط المشاهد، وانتخاب الشواهد، واختزانها تحت أهداب العيون التي في طرفها شوق للقاء قلب مدينة من المدن الكبيرة التي تتورط في حبها، وللمدن قلوب تبادلك المشاعر والأحاسيس، فالمدن مثل الناس، تولد لنجم ساطع، أو تولد لنجم خابٍ، وتولد للشقاء والعناء، فإذا هي في القمة، أو إذا هي في القاع، وإذا هي تعرف الشرف والسؤدد، أو هي تتعرض للمهانة والعذاب، ولكنها أيضاً كالناس إن صدق معدنهم صدقوا، وإن كان معدنهم زيفاً اندثروا، مهما تألق وجودهم للحظات، ومهما أحدثوا من ضجة وأثاروا الاهتمام، لا يستمرون إلا إلى حين، ثم إذا هي صفحة من وجود انطوى بخيره وشره، لا يعاد لها نشر أو إحياء . وكم من مدن تألقت في عصر وازدهرت ثم اندثرت تماماً إلى لاعودة، وكم من مدن سميت بالمدن الأشباح، شهدت الثروة والجاه والمجد، وامتلأت بيوتها وأزقتها بالأطماع والطموحات والعنف، ثم لم تبق منها إلا أطلال تحكي أن حياة كانت هناك، وأن حياة انسحبت من هنا إلى الأبد، (فاروق خورشيد، في بلاد السندباد، ص١٣٩، دار الهلال، القاهرة ١٩٨٦م) .

للمدينة وجودها على خريطة الفكر الإنساني، ولها مساحتها من الاهتمام العلمي والعملي، حتى ليعتبرها الباحثون مرآة تعكس علاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه، وقد عاصرت كل المدنيات التي ظهرت على وجه البسيطة،

منذ أن عرف الإنسان الاستقرار، وأدرك معنى التوطن، ووعى مفهوم وشكل المدينة في بساطتها أو تشابكها، ولكن اللافت للنظر هو أن الناس قد ذهبوا وواراهم الثرى كل حسب مقدار إنجازه، وظلت المدينة شاخصة في وجدان الإنسان، وماثلة في ضمير الأجيال تروي تاريخهم (سعيد بن محمد الصقلاوي، ثقافة المدينة، المنتدى الأدبي، مسقط ٢٠٠١م) .

وقد شغلت المدينة، أي مدينة، منذ أقدم العصور حيزاً كبيراً من الإبداع الأدبي، شعراً ونثراً، واحتلت موقعاً متميزاً في بؤرة الاهتمام العلمي والجغرافي والهندسي، فكل الأعمال العظيمة مثل (ملحمة جلجامش البابلية) و (إلياذة هوميروس الإغريقية) و (الشاهنامة الفارسية) و (ألف ليلة وليلة العربية) حتى الأعمال الروائية المعاصرة مثل (بين مدينتين لتشارلز ديكنز) ومعظم روايات (نجيب محفوظ خاصة الثلاثية) ثم (مدن الملح لعبد الرحمن منيف) وغيرها من القصص والروايات في الآداب الإنسانية، وحتى في القصائد ذات الصوت الواحد في العصور المختلفة، حملت أحداثها ملامح المدينة التي نشأت فيها حضارياً وثقافياً واجتماعياً . وقد نقلت إلينا كتب الأدب العربي وموسوعاته المختلفة صوراً متعددة لمظاهر الحضارة العربية في بدوها وحضرها، وفي قراها ومدنها، وفي بلدانها وأقاليمها، وفي سواحلها وعمقها البري . ويكفي المرء نظرة إلى كتاب (الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني) و (الأماني للقالي) و (العقد الفريد لابن عبد ربه) و (الكامل في الأدب للمبرد) وغيرها من مراجع التاريخ الأدبي ليتعرف على أحوال المدينة العربية من وجهة النظر الأدبية، فالشعراء العرب منذ (امرئ القيس) في الجاهلية، ومروراً بـ (أبي نواس) و (ابن الرومي) وشعراء الصوفية في العصر العباسي، وتعريجاً على (ابن حمديس) و (ابن زيدون) في العصر الأندلسي، ووصولاً إلى شعرنا المعاصر من (أحمد شوقي) وحتى (أدونيس) و (نزار قباني) وغيرهم، لم يدخروا وسعاً في رسم صورة ثقافة المدينة العربية والتي هي في الواقع نتاج الفكر والعقل الإنساني في هذا المحيط .

بجانب دورها السياسي بمدينة العلم، وصور بمدينة الشراع، وظفـار ببلاد اللبان .

طلاقة وانطلاقة

تجربتي التي تحلق في فضاءات مسقط، توحي إليَّ أن أتحرك من اللحظة الآنية، وأنا أستند إلى جدار التاريخ، وأبدأ الخطوة الأولى من مسقط (المدينة) مروراً بمسقط (العاصمة) سعياً إلى مسقط (المحافظة) بحباتها الست المعلقة في جيدها المصاغ برقة ودقة أنامل النهضة الحديثة .

ربما تشدك شواهد الحاضر ومشاهده في مسقط، إلى درجة قد لا تستطيع التحديق الكامل في تاريخها، كما ينبغي أن يكون التحديق، أو أن تمعن النظر باستفاضة في سيرة ومسيرة هذه المدينة ، ولكن ما الذي يمنعنا أن نمارس هذا التأمل التاريخي، لاسيما أن القلم قد تجاوز مرحلة النظرة الأولى، ليتخذ موقف الألفة ؟ .

الانطلاقة من البوابة . . فأما البوابة فهي بوابة مسقط، تلك التي لها مع الأيام جولات، ولها مع المكان حكايات، ولها مع الناس قصص وروايات، لكن هذه الحكايات والقصص والروايات، أمست في إطار (يحكى أن) وباتت في سياق (كان ياما كان) لماذا ؟ .

لقد أضحت بوابة مسقط رمزاً جديداً لعمان الحديثة، فقادة العالم والحكام الذين يزورون السلطنة، لابد أن يمروا عبر هذه البوابة، التي تؤدي إلى (قصر العلم) مقر الحكم والبلاط وكرسي السياسة والقرار .

هذه البوابة التي كانت رمز ظلام وإظلام، صارت نقطة طلاقة وانطلاق، والبوابة التي كان من يصل إليها بعد غروب الشمس يظل خارجها حتى الصباح، ومن يرغب في الخروج منها وقد غلقت أبوابها، يمكث فلا يفكر إلا ليبيت مع شحوب السراج الذي ينطفئ زيته، وإن لم ينطفئ قلب حامله. هذه البوابة بكل ظلمها وإظلامها، أصبحت شعلة تفتُّح، وومضة انفتاح، وصباحاً لا يعترف كثيراً بالليل، وكم كان الليل طويلاً وثقيلاً، بل كان أطول وأعنف وأثقل من ليل (امرئ القيس) الذي كان كموج البحر أرخى سدوله عليه بأنواع الهموم ليبتلي.

البوابة الآن تشكيل جمالي عصري، تبرق فيه لمحات العمارة العمانية، علو وارتفاع وأناقة، بعد أن كانت شيئاً ثقيلاً على النفس، يقبض على القلب فلا ينبسط، ومن يخترق يحترق. ثم تغير المعنى والمبنى، واستدار ١٨٠ درجة، مثلما استدار كل شيء إلى النور والخير والجمال، وصارت البوابة العتيقة، طلاقة مع انطلاقة، ورحابة فيها مهابة، وتكويناً طبيعياً بديعاً.

الجبل.. بكبريائه وارتفاعه، تتناثر على شفاهه بعض الآثار التي لاتزال عالقة به، وكأنها جزء من تشكيلاته، تحدثك وتقص عليك حوادث وأحداثاً. البحر.. بامتداده واتساعه، ومده وجزره، وفلكه وسفينه، وأعلامه وجواريه المنشآت، يغري على التحديق والتحليق. الشاطئ.. بطوله وعرضه، واخضراره وازدهاره، وأسراره وآثاره، يناديك ويستهويك، وفي الليل يناجيك، وإن بحت بسرك يحتويك. والسماء.. التي لا تعرف الغيوم، وإن رأتها صهرتها، قبل أن يرتد الطرف. والسحاب.. الذي لا يجرؤ على المكوث فيها إلا بمقدار غمضة عين وانتباهتها. والهدوء.. الذي يغلف المكان بمسحة من السكينة، تفضي إلى الطمأنينة. وكان التتويج لكل ذلك بمتحف بوابة

بالمجان، بدءاً بقهوة الصباح في السبة، إلى مسقط ومطرح، فيفاجأ أن قربة الماء تباع في جحلة بأنتين، ورزمة الحطب بروبيتين، وفنجان القهوة ليطوف بها الساقي الأزقة والطرقات بأنة واحدة. وإذا ما أوى الليل فعليه أن يكتري ركناً في إحدى خيام الشجيعية، وإذا ما أفلس يتوجب عليه افتراش رصيف مستشفى طومس، ومع ذلك فإنه يعتبر كل هذه المعاناة تهون في رؤية مدينة بحجم مطرح وفي رؤية مدينة بغموض مسقط.

وعلى مرآة الذاكرة نشاهد هذا الملمح، وبين جو حار خانق تقترب فيه الحرارة من الخمسين مئوية، وبين رجال يفترشون التكايا في المقاهي يحتسون الشاي الحار في عز الظهر، لتقف أمام فلسفة مسقطية لا تعرف أبعادها بعد، يطفئون الحرارة بالحرارة، كما نمارس في الريف تخفيف الألم بالكي، ويحرثون الزمان بلعبة الحواليس، وهي لعبة السقوط من حفرة إلى حفرة لتكون حصيلة السقوط المتواصل حفنة حجارة، ترمى في النهاية في الحفرة الأخيرة، ليكون مقتل الخصم فقره من حجارته، وحين يأتي الليل تفترش المدينتان السطوح صيفاً، تسامر طبلات النوبة، تدق في الذاكرة، وتحكي عن أناس ينامون بـ (الريموت كونترول) وعن أناس عرفوا قانون الطوارئ قبل أن يكون هناك قانون، وعرفوا حظر التجول قبل أن يعلن هؤلاء الناس عن رغبة في التجول فعلاً، وتقفل المدينة بواباتها، وتستريح قريرة العين خلف أسوارها، فقد نام الناس ونام التاريخ، ودخل الكل في حلم هامشه محدود جداً، وتنازعتهم الأماني البريئة.

ونعود نقرأ في سطور مسقط القديمة، الخطوات المتعبة لشبح الأيام، هذا باب مسقط، وهناك يتربع الجمادار الأشكران، بورقة من يده تسافر إلى داخل عمان، وبممانعة منه تستضيفك مسقط إجبارياً، ذهب الجمادار وتوارى ككل حزمات الضيم يبددها الفجر ويلغيها، على أنه تتوجب الإشارة إلى أن التقليب

في ماضي مسقط ومطرح ليس تقليباً في مواجع الجرح، بل تحسساً للبدايات كيف انطلقت ورصيدا لشباب النهضة كيف نما وترعرع، وتشخيصاً للحالة الصحية لمدينة متعافية من خلال ملف الحـــالة العلاجي المودع في متحف الأمس .

نقلتان عظيمتان في تاريخ مسقط

أحدثت مسقط نقلتين عظيمتين في تاريخ عمان المعاصر، وفي كل نقلة كانت التحولات جد هائلة على كل المستويات . فأما النقلة الأولى فقد تمت عندما انتقلت العاصمة العمانية من الرستاق إلى مسقط، في عهد حمد بن سعيد (عام ١٧٧٩ – ١٧٩٢م) حفيد الإمام أحمد بن سعيد مؤسس الدولة البوسعيدية، وصارت مسقط هي العاصمة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وبالتالي صار لعمان قوة بحرية ضاربة، حتى أن المؤرخين أجمعوا على أن نفوذ مسقط في الخليج نفوذ غير منازع . وهنا تفتح مفكرة التاريخ صفحة تحتفظ بها لرمز عماني كبير هو السيد سعيد بن أحمد، الذي تولى الحكم (١٢١٩-١٢٧٣هـ / ١٨٠٤-١٨٥٦م) وفي عهده كانت الدولة العمانية، دولة ملاحية كبيرة تمتد ممتلكاتها من سواحل عمان إلى جزيرة بمبا (الجزيرة الخضراء) وزنجبار على الساحل الشرقي لأفريقيا، إلى منطقة الساحل نفسه في أفريقيا، وهي التي تحيط بممباسا ودار السلام، وتمتد من شمال موزمبيق حتى الصومال، (عمان في التاريخ، ص٣٠١، وزارة الإعلام، مسقط ١٩٩٥م) ويشهد التاريخ من بعده للسيد سعيد بن سلطان، أنه كان واحداً من أبرز حكام تلك الفترة، وقد أصبحت مسقط في عهده مركزاً اقتصادياً هاماً، ومحطة عبور، وتجمعاً تجارياً كبيراً في منطقة الخليج، فقد تمكن الرجل من دعم الاستقرار ونشر الرخاء في البلاد وتكوين جيش قوي، وأسطول بحري مجهز بكافة

بالإحساس بالتفوق، فصاغوا كتاباتهم من أهوائهم، وطبعوها بطابع التعصب والعرقية، فابتعدت عن الحيادية وسقطت في المذهبية، وربما ساعدهم على ذلك حقب الضعف العربي .

هذه المغالطة التاريخية الواضحة، لطالما دعت الباحثين والدارسين إلى كشفها أو إلقاء الأضواء التي تسلط مزيداً من الكشف عن الحقيقة التاريخية التي تؤكد أن جذور مسقط ضاربة في أرضية التاريخ، ومن يريد المزيد إزاء هذه القضية، يمكنه الرجوع إلى (موسوعة عمان في التاريخ، الفصل الأول من الباب الأول) وسيقف على كثير من علامات تأكيد الجذور مع (ياقوت الحموي في معجم البلدان) و (السيرافي في أخبار الصين والهند) و (المقدسي في أحسن التقاسيم) و (الاصطخري في مسالك الممالك) و (الهمذاني في صفة جزيرة العرب وكتاب البلدان) و (الدمشقي في نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) و (ابن بطوطة في رحلاته) و (المسعودي في مروج الذهب) و (القلقشندي في صبح الأعشى) .

وحين ترى عمان في عيون هؤلاء المؤرخين والجغرافيين والرحالة، تشاهد الدور الذي به أسهمت عمان على امتداد تاريخها الطويل في صنع الحضارة الإنسانية، وكان لأبنائها جهد غير منكور في خدمة هذه الحضارة، فالموقع المتميز لهذا البلد الطيب، والروح النضالية التي حملت العمانيين إلى أقاصي الأرض، يجوبون البحار، ويمتطون الأخطار، فيلمسون بأيديهم، ويشاهدون بأعينهم، ويخالطون بقلوبهم وعقولهم، صنوفاً من الحضارات، وضروباً من الثقافات، وأشكالاً متباينة من التقاليد والعادات، كل ذلك كان له ولاشك أثر بارز في البناء الحضاري الذي شاده الآباء والأجداد، وصاغته الأجيال المتعاقبة تراثاً حياً خالداً يجسد ملامح التاريخ وملاحمه، ويعبر بصدق عن الثراء الباذخ

للتجربة العمانية الضاربة في عمق التاريخ . (خطب وكلمات جلالة السلطان قابوس بن سعيد، ١٨ نوفمبر ١٩٩٤م) .

أول فصول قصتها مع الأيام

تقف في قلب "روي" أكثر المناطق حيوية، وأكثرها اشتعالاً بالحركة، فتجد نفسك محاطاً بمجموعة من العمارات الضخمة، تشكل الحي التجاري، حيث البنوك الكبرى، وعلى رأسها البنك المركزي العماني . ثم هناك الشارع التجاري الذي هو شريان لعمليات البيع والشراء والأخذ والعطاء . ووسط هذا الزحام تجد عيونك يمتد بصرها إلى مسقط القديمة، حيث تستقطبك همسات العراقة .

من مسقط القديمة ذات الخمسة كيلومترات مربعة مساحة، تبدأ فصول قصة عمان مع التاريخ والحضارة، التي كتبها العمانيون عبر العصور، وأنت مخير في الدخول إليها من إحدى بواباتها الثلاث الموزعة على سورها الذي يحتوي مسقط من الشرق والغرب والجنوب، ليترك البعد الرابع للبحر يكمل الدائرة . وفي داخل هذا السور ترتفع عيناك لتتوقف بعضاً من الوقت، مأخوذاً بتشكيلات قلعتي "الجلالي" و "الميراني" وهما قلعتان شامختان على خليج عمان، حاملتان لكثير من الرموز التاريخية، شاهدتان على ملامح القوة العمانية في صمودها، تستندان إلى خلفية من المباني التقليديـة ذات المعاني غير التقليدية .

في هذه الأجواء، ثمة ٢٥ مدينة وقرية في ولاية مسقط تمنحها الاخضرار الطبيعي، المتقاطع مع ثلاثة أفلاج و ٢٨ وادياً وخمسة أخوار، و٥٨ سيحاً تشكل شرايين حياة وتتجلى أهميتها وسط ٨٢ جبلاً، وإطلالة خمس قلاع هي

: (قلعة الراوية) التي أعيد بناؤها في عهد السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي الذي تولى الحكم من ١٢٠٧هـ، وقلعتي الصيرة الشرقية والغربية كتحصينات أمام قريتي الجلالي والميراني، بالإضافة إلى تسعة أبراج يعود أقدمها وهو (برج الجصة) إلى عهد اليعاربة، وبين مجموعة من البيوت الأثرية مثل (بيت السيد نادر بن فيصل) و (بيت جريزة) و (بيت فرنسا) (معجم أرض عمان، ص٥٠ وما بعدها، جامعة السلطان قابوس، مكتب مستشار جلالة السلطان لشئون التخطيط الاقتصادي، ٢٠٠١م) .

لابد أن تستوقفك الأنماط المعمارية (د. هلال بن علي الهنائي، الأنماط المعمارية في عمان، دورية عمان، ١٩٩٧م) التي تأخذ شكل منخفض محاط بالجبال العالية، وهي ذات منفذ أحادي ناحية البحر، ونظراً لأنها كانت عاصمة للبلاد لفترات طويلة، فقد انعكس ذلك على نمط عمارتها التقليدية، ومن الناحية التاريخية فإن الباحثين يقسمون النماذج النمطية في مسقط إلى ثلاث مجموعات بحسب المستوى الاجتماعي للقاطنين، ويشمل ذلك منطقة العائلة المالكة ورجال الدولة ومنازل الطبقة المتوسطة ومنطقة سكن محدودي الدخل .

فأما المنطقة الأولى، وهي مسورة، فتقع عند منفذ البحر، حيث ينشط النسيم، وتتسم هذه المباني بالفخامة والبساطة، وعملاً لاستمرار تلطيف الجو في هذه المنازل فإنها صممت لتحتفظ ببرودتها المكتسبة خلال الليل حتى منتصف النهار، حين يبدأ نسيم البحر في الهبوب بفاعلية، ومن هنا فقد كان نمط المنازل ذات الفناء الداخلي هو المناسب لتحقيق حالة الانسجام أو التكيف الحراري، إضافة إلى أن الرطوبة المنخفضة نسبياً في منطقة مسقط، تساعد على تحقيق هذا الهدف .

ويتكون المبنى السكني من طابقين أو ثلاثة، ومعظمها لها فناء داخلي، وفيها يكون الطابق الأرضي حاوياً لعدد قليل من النوافذ (مع عدد كبير من فتحات التهوية المرتفعة) لضمان تأمين المبنى ومناعته . وتحوي الطوابق العليا عدداً أكبر من النوافذ، ويعلو كلاً منها فتحات التهوية التي تفيد في تسريب هواء الغرفة الساخن إلى الخارج، ليحل مكانه هواء بارد من فناء المنزل، وخلال الليل فإن فناء المنزل يفقد حرارته بالأشعة المتصاعدة إلى طبقات الجو العليا، بينما لا يصل إليه الهواء الساخن بفضل جدران الغرف المحيطة به . ونتيجة لذلك فإن الهواء البارد الذي يتكون في الفناء ينساب إلى الغرف المحيطة به طارداً الهواء الساخن من خلال فتحات التهوية العلوية . أما منازل محدودي الدخل فتتواجد متراصة وملاصقة لمنطقة المرتفعات الجبلية، وتبنى عادة من جذوع النخل وتحظى بمزاياها فتسهم التيارات الهوائية التي تتكون بفعل التغيرات الدورية في درجة حرارة سطح الجبل في توفير نوع من الانتعاش الحراري .

حاضر على وسادة التاريخ

بعد قليل تجد نفسك مستلقياً على وسادة التاريخ والمعمار، وتلقى صعوبة لانتزاع نفسك من هذه الهالة وتلك الحالة . إذن لابد من إلقاء نظرة على كورنيش "مطرح" . ومدينة مطرح هي في الأصل امتداد لمدينة مسقط، وكانت مركز التقاء القوافل البرية والسفن البحرية القادمة من مختلف أنحاء العالم . ولا تزال مطرح معززة بميناء السلطان قابوس، وعزيزة بأوراقها البحرية والاقتصادية .

هنا . . ميناء السلطان قابوس، أول ميناء عماني تردد فيه صوت جلالة السلطان في العشرين من نوفمبر عام ١٩٧٤م لحظة الافتتاح التي ترمز إلى انفتاح عمان بما فيها ومن فيها، على العالم من حولها، ويكتب الحرف الأول من منظومة المواصلات والاتصالات بقوله : "لقد أدركنا سلفاً أهمية المرحلة التي نحياها، وتفهمنا أهمية مكانتنا في المنطقة، ومن هنا كان الاهتمام بإنشاء الموانئ من الأولويات التي وضعناها في الاعتبار" (خطب وكلمات جلالة السلطان قابوس بن سعيد ٢٠ نوفمبر ١٩٧٤م مسقط) .

لماذا ؟ يقول جلالة السلطان قابوس : "إذا كان على بلادنا أن تتحد وحدة حقيقية يجب أن يكون لدينا نظام عصري للمواصلات، وذلك اعتزازاً بتاريخ عمان البحري الذي سطرته تلك الصواري الشامخة التي اندفعت في ذلك الماضي الموشى بالمجد من مختلف الموانئ العمانية" (نفس المرجع، ١٨، نوفمبر ١٩٩٦) .

وتتوالى منظومة الموانئ لتشكل لمسة عمانية في الجو، وموجة عمانية في البحر، وقدماً عمانية في البر، ولتشغل مساحة واسعة من الإستراتيجية الشاملة التي تمكن بها جلالة السلطان عبر ثلاثة عقود من الزمن، لتتعاظم شواهدها وتتباين مشاهدها، وهي تهيئ المجتمع العماني لدخول القرن الجديد، بخطوات واثقة في ذاته، وبتفعيل مستمر لقدراته، وباستثمار أمثل لإمكانياته، على ضوء حقائق التاريخ والجغرافيا التي صارت تفعل وتتفاعل مع العصر بكل هذا الحجم .

مثل خان الخليلي والحميدية والملح

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فإن ثمة صورة تاريخية رسمها ابن ماجد حين قال : "إن مسقط هي الميناء الأول لعمان وتأتي إليه السفن وتتمون فيه . وفي

مسقط تباع الأقمشة والخضراوات والزيوت والحبوب . ثم إن السفن حين تقصد مسقط تكون في مكان آمن من كل ريح . وفي مسقط المياه العذبة . وسكانها كرماء لطفاء يحبون الغرباء" (عمان في التاريخ، ص٣٠٠) .

ويطول التذكر ونحن في الميناء، وأسترجع من الذاكرة صورة طريفة عمرها ٢٤٥ سنة، لأحد وكلاء شركة ليفتنانت البريطانية رسمها عام ١٧٥٥م حيث ذكر أن كميات هائلة من السلع والبضائع مكدسة على الطرق من غير رقابة أو حراسة عليها إذ لا توجد مستودعات تخزنها، ومع ذلك لم نسمع عن حادث سرقة أو سطو على هذه السلع أياً كان .

على بعد خطوات من الميناء، ترى هدير الحركة منبعثاً من قلب مطرح، مصباح يضيء من هناك من (سوق الظلام) وقد جاءت تسميته من أن الظلام يغطي المكان حتى في عز الظهيرة، فالحواري ضيقة، والأزقة متلاصقة، والشوارع متعرجة، والسماء لا تكاد تبين .

السوق . . يمثل نموذجاً للأسواق الشرقية الأصيلة، والملامح العربية القديمة، ويشكل أحد معالم الجاذبية السياحية، بل إن زيارتك تظل منقوصة، بل غير محسوبة، إذا ما لم تزر سوق مطرح، بل مطرح نفسها، خاصة أن فيها بريق الذهب، ووهج الصاغة العمانيين الذين يتميزون بالدقة والمهارة في صناعة المشغولات الذهبية والفضية، وصياغتها بحرفية و (حرفنة) .

في السوق . . كل ما يخطر على بالك، ولكل المستويات، وإن كان المستوى الشعبي هو الخيط الذي يشد الحركة التي لا تعرف الهدوء . في السوق . . جاذبية خاصة، مصدرها المقتنيات والتحف والأشياء النادرة، التي يعز على أماكن أخرى أن توفرها، حتى المجمعات التجارية الحديثة المنتشرة في المدينة .

أنها وضعت ضوابط تحول دون المساس بها (تراث مسقط المعماري، ص٦٦، بلدية مسقط ١٩٩٧م) .

وتعكس الأنماط المعمارية في مدينة مطرح، مزيجاً اجتماعياً فريداً، حيث استقر في المدينة كثير من التجار النازحين من أمكنة مختلفة، ومازالت المنطقة السكنية الخاصة بهم تحمل سماتها المتميزة، ومع تطلع أهل هذه المنطقة المزدحمة إلى توفير الخصوصية والأمان في المسكن، فإنهم لم يتوانوا أيضاً في توفير أسباب التكيف الحراري مع البيئة الحارة المحيطة بهم، ولقد بنيت المساكن غالباً من طابقين، وترتفع من اثنين إلى ثلاثة أمتار عن سطح الأرض لتفادي نوبات فيضان مياه البحر القريب، ولتحقيق الخصوصية والأمان، والملاحظ كثرة عدد النوافذ الطولية المرتفعة والتي تساعد على استقبال نسيم البحر، وتظهر الشرفات ذات الدعائم الخشبية الطرفين بكثرة في الطابق العلوي والتي قل أن توجد في غير هذه المنطقة عبر عمان، وتمتد هذه الشرفات عرضياً من مستوى الطابق الأول مواجهة البحر، ومغطاة بسقف مائل، وتحوي الحوائط التي تمتد منها هذه الشرفات، أبواباً زجاجية ونوافذ مستطيلة، واعتبرت هذه الشرفات كامتداد لأماكن المعيشة وشاع استخدامها بواسطة السكان كأماكن للجلوس أو النوم، ويلاحظ أن هذه الشرفات توفر ظلاً للنوافذ التي تقع تحتها في الجدار . بعيداً عن الشاطئ تظهر الحاجة الملحة إلى التهوية بالعدد الكبير من الفتحات في المساكن، ومن الملاحظ أيضاً أن كثيراً من المنازل القديمة في مطرح كانت قد بنيت من سعف وجريد النخيل (د. هلال بن علي الهنائي، الأنماط المعمارية في عمان، دورية عمان، ١٩٩٧م) و (السور) بانسجامه مع (السوق) وتناغم الاثنين مع حركة (الميناء) وامتداد الثلاثة بالإطلالة على (الكورنيش) . كل ذلك يشكل لوحة تداخلت فيها ألوان الطبيعة، وريشة الجغرافيا، وقلم التاريخ، وظلال الحاضر، وبثه الروح في ثناياها .

وتحدق في الفضاء فإذا بك تطيل النظر إلى الأعلى مع تشكيل (صرح ريام) الذي يتشابه إلى حد ما، مع برج القاهرة وأبراج الكويت، إلا أنه يبدو وكأنه منحوت على قمة الجبل، مثله مثل (قلعة نخل) المحمولة على الصخور، وتصعد إليه بدرج لتراه ينحني بحنو وكبرياء على (حديقة ريام) التي تشكل مع حديقة القرم الطبيعية وحديقة النسيم، ثلاث حدائق غير تقليدية في مسقط بل في كل جنبات عمان، وكل واحدة تمثل رئـــة طبيعية ونقية للمجتمع والناس .

أما (حديقة ريام)، فهي الهدية الثمينة التي تلقاها الناس في مسقط في غمرة أضواء العيد الوطني الخامس عشر ١٩٨٥م وتمتد على مساحة ٧٣,٥٨٤ متراً مربعاً، وبلغت تكلفتها أكثر من مليون ريال عماني . والمثير في التكوين الجمالي للحديقة، أنه يتشكل في قسمين متجاورين، أحدهما أكثر ارتفاعاً من الآخر، يربطهما جسر خرساني يسهل الحركة للمشاة، عند منتصف بحيرة اصطناعية ذات نافورتين تتماوج فيهما الألوان، وتتحاور الأضواء في لياليها، وتنبعث أنغام الموسيقى في ثناياها، وحتى التشكيلات الجمالية للملاهي ووسائل الترفيه والتسلية، تستلهم الملامح البحرية، وحين تقف على ربوة من روابي الحديقة، تتشكل أمامك على مرمى البصر، مرايا للسفن التي ترسو في ميناء السلطان قابوس .

وفي سياق الخضرة والماء والجمال الطبيعي والحسن الصناعي والحس الاجتماعي، نتحرك قليلاً إلى منطقة القرم، لنرى مشهدين : الأول قمة في التوهج والحركة، والآخر قمة في الهدوء والسكون . فأما التي هي متوهجة، فهي منطقة القرم التجارية، قلب مسقط النابض بالحركة العصرية، منطقة تتسم بالحركة الدائبة والدائمة ليل نهار، حيث المراكز التسويقية، والمجمعات التجارية والسياحية والترفيهية، بتشكيلاتها الجمالية الجامعة بين العراقة

والحداثة في الشكل والمضمون، فيها محبو التسوق ورواده من كل المستويات، ومن كل الجنسيات، وفيها من كل سلعة ومنتج محلي وعالمي أنواع وأشكال، كشريحة من الشرائح التجارية، تتجاور مع الشرائح والقطاعات الأخرى، يتعانق اخضرار الأشجار الكثيفة مع ذبذبات وانفعالات الإلكترونيات، وتتلون مع اصفرار واحمرار الأضواء، وتتمازج مع انبعاثات الإبداع الشعبي في الأماكن التسويقية (المودرن) فتتناغم الإيقاعات، وتتناسق الأنغام في منظومة تؤكد على قيمة الجمال في الحياة ومتعة الفن للأرواح .

وأما التي هي ساكنة، فهي تلك المنطقة التي تنساب على مرتفعات القرم حيث الفلل المستلقية، والتي تأبى الارتفاع ولا تتقبله، ولا تعترف به، ولا ينبغي، شأنها في ذلك شأن مدينة السلطان قابوس . وفي هذه المرتفعات تمتد حديقة القرم الطبيعية على مساحة ١,٦١٥,٤٤٩ متراً مربعاً وهي أكبر حديقة في سلطنة عمان، تتواجد في منطقة طبيعية تتمايز تضاريسها بالهضاب والمسطحات الشاسعة، الممدودة والمتمددة في المساحة ما بين فندقي (انتركونتننتال مسقط) و (كراون بلازا)وهي منطقة أثرية الأصل، أكدت الاكتشافات الأثرية أنها تعود في تاريخها إلى العصر الحجري، وتحتفظ بعدد هائل ونادر من النباتات الطبيعية والأصداف المائية، ولذلك فهي في جزء منها، تعتبر مختبراً للباحثين في التاريخ الطبيعي .

وقد استثمرت (بلدية مسقط) جماليات الحديقة وطبيعيتها، فأنشأت بحيرة اصطناعية تحتضن مجموعة من الجزر الصغيرة، وشكلت نافورة ترتفع مياهها المتراقصة ثلاثين متراً، وتم تسوير تلك المساحة الشاسعة التي تنبت فيها الأشجار الطبيعية، حيث تتكاثر أنواع مختلفة من الحياة البرية والمائية وتحط فيها الطيور المهاجرة، واستزرعت أحد عشر ألف شجرة وحوالي ٤٠٠,٠٠٠ متر مربع من المسطحات الخضراء التي تكسو المنطقة بالاخضرار

والازدهار، خاصة مع ساحة (اليوبيل الفضي) التي تمثل لمسة جمالية عصرية، أو قل هي لوحة طبيعية، تتمايل فيها الألوان، وتتمايس فيها مفردات الجمال والتجميل، لتمتع العيون وتسر الناظرين .

أما حديقة النسيم العامة فتنبع قيمتها من أنها همزة وصل بين مسقط العاصمة وبقية ولايات السلطنة، انطلاقاً من ولاية السيب التي تتسم بهدوء وسكينة، وحدائق دائمة الخضرة، وشواطئ ممدودة، ومناخ بديع، وهي في الأصل كانت مزرعة خاصة بجلالة السلطان قابوس، وقد أقر بأن تكون هدية من جلالته إلى الشعب العماني، لإشاعة الجمال في جنبات البلاد . وهي تبعد عن مسقط حوالي ٦٠ كيلومتراً وتبلغ مساحتها ٧٥٠,٠٠٠ متر مربع، ومجهزة تجهيزاً خاصاً لاستقبال العائلات والأفراد، ولها خصوصية فريدة في شكلها ومضمونها، بمساحات شاسعة من المسطحات الخضراء المخططة، وفق أحدث أساليب البستنة، كما تضم بحيرة اصطناعية، ومجموعة من الملاعب الرياضية ومدينة للألعاب الترفيهية الإلكترونية (يوسف الشاروني، ملامح عمانية، ص٢٠٤، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩٠م) .

وقال البحر

من هنا . . من السواحل العمانية الممتدة، أبحر الإنسان العماني على صهوات الأمواج من قديم الزمان، رائداً يربط أجزاء الإنسانية، ويصل الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب، ويتبادل الخبرات والخيرات مع حضارات العالم .

من هنا . . انطلق الشراع العماني يجوب بحار الدنيا ومحيطاتها، حاملاً منتجاته، ومحملاً بإبداعاته، ليتواصل مع الآخر، عائداً بالطيبات من البر

والبحر في تبادلات تجارية منتظمة، جعلت من عمان واحدة من المحطات والموانئ العالمية .

هنا . . على الشواطئ العمانية الممدودة، تشكلت الموجات الأولى للحضارة العمانية، على أكتاف وسواعد البحار العماني، فالبحر مكون أساسي من مكونات الإنسان العماني، الذي تعلم من البحر حب المغامرة واستلهم روح المثابرة، وعلم على البحر مؤثرات وجوده وحياته، ونقش على صفحات البحر أمجاده البحرية العسكرية، وجعل من البحر رمزاً لقوة عمان وهيبتها وشموخها عبر شواهد التاريخ ومشاهد الجغرافيا .

حوارات رجال البحر العمانيين مع أمواج البحار، حوارات طويلة، والعلاقة القوية والعفية بينهم وبين كنوز البحر وثرواته، واستخراج طيباته، مشحونة بالذكريات، ومسكونة بالمغامرات، وعلى شواطئ مسقط يحدثنا البحر كثيراً، بل يحلو أمام هدوء صفحته، تجاذب أطراف الحديث . فالبحر "*مصدر من مصادر الخيال الشعبي، ومجال فسيح لبناء الحكايات والقصص والروايات، ودنيا خصبة من الإيحاء للروائي والقصّاص يغامران مع أبطالهما فيها، بحثاً عن الكنز والثروات وبحثاً عن الربح والتجارة، وبحثاً عن المعرفة والتجربة والمتعة والإثارة* . ولكننا في كل دراساتنا عن الشخصية العربية ومكوناتها *أغفلنا البحر وروح المغامرة والإصرار والإثارة والقدرة على الخيال والابتكار، والطاقة على الصبر، وتطوير الممكن لبلوغ المراد وتحويل الحلم إلى حقيقة وواقع . ومن قديم جداً والسفن العربية تمخر البحار والخلجان للصيد والتجارة والأسفار . ومن قديم جداً واللبان والبخور والند والصندل من منتجات الجنوب العربي ومن مستوردات السفن العربية عبر البحار السبعة، تغزو معابد أوروبا والشرق، وتعطر الحضارة الأشورية والبابلية والفرعونية والإغريقية والرومانية . ومن قديم جداً وحرير الصين وأخشاب الهند ولبان عمان ولآلئ*

الخليج وجواهر سيلان تسهم في صنع مظاهر الحضارة والتقدم في العالم القديم . ونحن نغفل هذه المشاركة حين نغفل دور العرب في قهر البحار، وحين نغفل القراءة النقدية الصحيحة لعالم البحار في ألف ليلة وليلة، وفي عالم البحر العربي تمثل مغامرات سندباد وحكايات البحر في الليالي، عطاءه الفني والأدبي والشعبي على السواء، تفتح الدنيا كاملة في تاريخ العرب مع البحر منذ أعماق التاريخ وإلى اليوم، وامتلأت هذه الدنيا بالمدن البحرية ذات التاريخ العريق، وبالصناعات البحرية وأولها صناعة السفن الضاربة في عمق سحيق من تاريخ البشرية، وقصة الإصرار العربي على قهر البحر وفتح الطريق أمام الوجود المترابط للإنسان منذ البداية الأولى للمعنى الحضاري للإنسان، استرجع صور الثغور والقلاع والسفن وطرق التجارة وطرق الإبحار، فإذا أنت أمام سفن الليالي وسفن سندباد، وإذا أنت أمام الطرق التي سلكها سندباد في رحلاته، وإذا أنت أمام الجزر والبحار التي قدمت لألف ليلة وليلة عطاء البحر السحري في إبداعه الفني" . (في بلاد السندباد، ص١١)

وللبحر وجه آخر

ولأن البحر أحد مفاتيح الشخصية العمانية، فقد نال اهتماماً غير تقليدي، حيث تمتد شواطئ هنا وهناك ١٧٠٠ كيلومتر، لذلك أضفت السلطنة لمسات جمالية على شواطئ مسقط المستلقية على الخليج . وللبحر آثاره في دوائر التكوين، وأسراره تتجاوز الجمال ومشتقاته، وتعلو على الاقتصاد وتوابعه، ونصغي إلى صوت التاريخ وهو يروي على موجاته كيف تشكلت البحرية العمانية، بأكثر من حقيقة يوردها العلماء والباحثون في أن قوة عمان تنبع بالدرجة الأولى من قوة بحريتها، ومن تماسك جبهتها الداخلية، فبحريتها تقوى بقوة الجبهة الداخلية، وتضعف بضعفها أيضاً . وأن البحرية العمانية

الناس في عمان

الناس في عمان طيبون، يميلون إلى الاتزان ويتسمون بالهدوء، لا يؤمنون بالعنف ولا يتخذونه سبيلاً، يؤثرون الوداعة، ويسلكون الضيافة بكرمها وحسنها عنواناً دائماً لشخصية الإنسان في عمان . في هذا السياق يؤكد السلطان قابوس بن سعيد :

" إن التطرف مهما كانت مسمياته، والتعصب مهما كانت أشكاله، والتحزب مهما كانت دوافعه ومنطلقاته، نباتات كريهة سامة، ترفضها التربة العمانية الطيبة التي لا تنبت إلا طيباً" (خطب وكلمات جلالة السلطان قابوس بن سعيد، ١٨ نوفمبر ١٩٩٤م) .

وجذور مثل هذه القيم النبيلة، استقطبت كثيراً من الرحالة والمستكشفين الأجانب، خذ مثلاً ويندل فيليبس في كتابه المعروف رحلة في عمان، يقول : المجتمع العماني مجتمع مسلم يعتقد الفرد فيه أنه من الإثم أن يشير إلى المستقبل دون أن يذكر عبارة "إن شاء الله" . وهذا دليل على أن الزمن لم يؤثر على القيم المتوارثة الموجودة، والعماني مسلم فخور معتز بنفسه، مستقل بذاته، ذو نفس قانعة راضية، هادئ الطبع، وعمان دولة لطيفة لها وقع دافئ على النفس .

وملمح آخر يشرحه الرحالة "سير جون ماند" : إن وجود مثل هذه الدولة العربية كدولة مكتملة البنيان فوق الصحراء، حيث تصعب المعيشة، هو أوضح مثال للذكاء والفطنة . وبينما يقول الكابتن (الكسندر هاملتون) إن مسقط قوية جداً بطبيعتها، وغنية بفنها وسكانها طيبون، يبغضون التفاخر والتباهي، نرى هذه الصورة التي رسمها (ج. س. باكنجهام) حيث وجد أن أهل مسقط أثناء

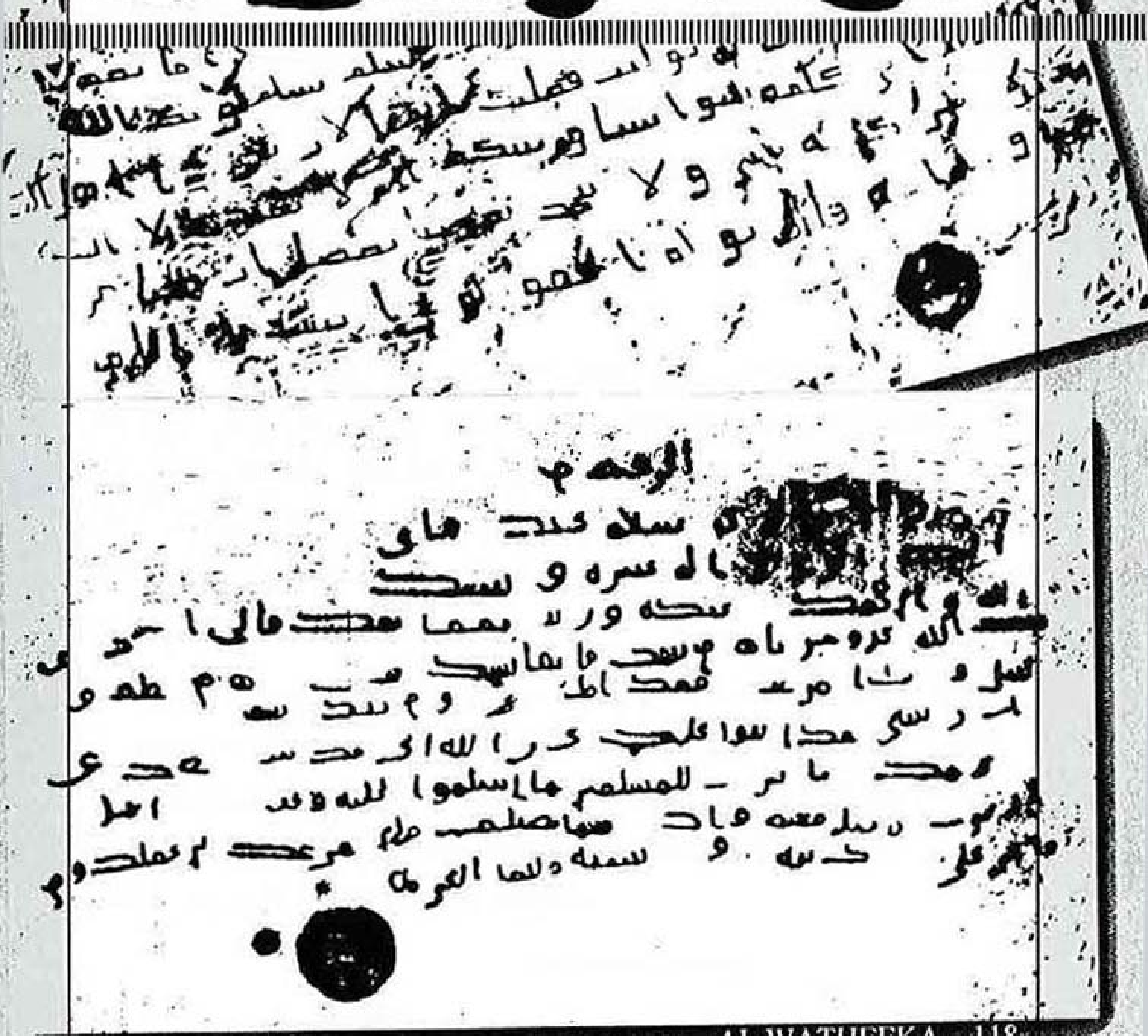
زيارته لها عام ١٨١٦م أنظف وأكثر اعتناءً بالملبس، وأكثر كياسة من كل العرب الذين رأيتهم في حياتي، وشعرت فيهم بالثقة والعزيمة القوية والاحترام، ويسجل الرحالة (هاريسون) في رحلته إلى الجزيرة العربية، الحقيقة التي تأكدت منها هناك أن العماني يستمتع بالعمل، وهو مهذب يتصف بضبط النفس (مجلة العربي، العدد٣١٩ يونيو ١٩٨٥م، الكويت) .

الانسجام مع النفس والآخرين

الروح المهيمن على المجتمع العماني روح واحد يستمد قوته من مصداقية الاتجاه بالمجتمع إلى الأفضل، مواكبة للعصر ومواجهة إذا لزم الأمر، لما يحول دون تحقيق الهدف العام . ثمة منظومة اجتماعية تنضوي بكافة شرائحها تحت لواء هذا الروح، طوعاً وطواعية وعن طيب خاطر، سعياً إلى التطور المستمر والنهوض المتواصل والتقدم الدائم . ولعل السر يكمن في الإضاءة الساطعة التي يستضيء بها المجتمع منذ إشراقته الحديثة، والتي تدثر الناس في عمان باليقين : "الجميع سواسية" شكلاً وموضوعاً، وقد قننها النظام الأساسي للدولة، إذ ينص على أن "المواطنين جميعهم سواسية أمام القانون، وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة، ولا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللون أو اللغة أو الدين أو المذهب أو الموطن أو المركز الاجتماعي" (النظام الأساسي للدولة، ص١٤، المادة ١٧) .

"من الناحية المذهبية، ترى في المسجد الواحد أصحاب المذهب السني مع المذهب الأباضي مع المذهب الشيعي، كل في فلك التوحيد يسبحون ويسبحون فحرية القيام بالشعائر الدينية طبقا للعادات المرعية مصونة على ألا يخل ذلك بالنظام العام أو ينافى الآداب" (المرجع السابق، ص١٤) حتى في الشارع، ترى

رسائل الرسول



إلى البحرين ﷺ



بقلم الدكتور
علي أباحسين

لقد أولى كثير من المؤرخين وعلماء الحديث والسير والأدب اهتماماً لدراسة وتحقيق الرسائل التي أرسلها الرسول ﷺ إلى ملوك وأمراء وأهل عصره فلم يعد هناك أي شك في صحة الكتابة من قبله ﷺ والوفادات التي أرسلها لهم . أما من يتحفظ على صحة الوفادات النبوية فإنهم لم يتحققوا من دراسة ما كتب حول هذا الموضوع في كتب (الحديث) الموثق . ففي باب الجهاد ما أخرجه مسلم عن أنس بن مالك ؓ أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى الفرس وإلى قيصر الروم وإلى نجاشي الحبشة وإلى كل جبار يدعوهم إلى عبادة الله تعالى[١] . وتجمع كتب الحديث على ذكر خبر الرسائل والخاتم والوفادة ومثل ذلك أوردت ذكرها كتب (السير والتاريخ والأدب)[٢]

التوقيت ينطبق على رسائل الرسول ﷺ الأخرى إلى عمان أيضاً وقد اجتهد الكثير في ترتيب تلك الرسائل معتمدين على المناسبة التي أدت إلى إرسالها وما ورد في نصوصها ويكاد يتفق الكثير على أن أرجح عام هو (العام الثامن للهجرة الموافق ٦٣٠م) إذ كان عام إرسال رسائل الرسول ﷺ إلى أهل البحرين[١١] . أي بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وذلك لأن الرسول ﷺ تخلص من أعدائه في مكة وعظم صيته وزادت قوته حينئذ بدأ في توسيع نطاق الدعوة إلى أطراف الجزيرة ومن الصعب القول بأن الرسول ﷺ بعث برسائله قبل الفتح خشية أن يستفز قريش فتجدد عداءها للمسلمين[١٢] .

وأوفد الرسول ﷺ (العلاء بن عبد الله الحضرمي) إلى البحرين وهو من أهل مكة ولد فيها وأسلم في بداية الدعوة وقيل أنه أسلم قبل فتح مكة . وعده بعض المؤرخين من كتاب الوحي، وكان فصيح اللسان اتخذه الرسول ﷺ أميراً على البحرين ثم عاملاً لجمع الصدقات فيها فقد ولاه عليها في السنة الثامنة للهجرة النبوية الموافق عام ٦٣٠م وأقره على ولاية البحرين أبو بكر ثم عمر ﷺ وكان له موقف مهم في القضاء على الردة في البحرين . وعزله عمر بن الخطاب ﷺ حين عبر البحر بالجيش الإسلامي إلى دارين وقيل أن عمر ولاه على البصرة، وفي أثناء سفره إليها توفى في الطريق وذلك في قرية من أرض تميم في عام ٢١هـ الموافق ٦٤٢م[١٣] .

أما حاكم البحرين الذي أرسلت له أول رسالة من الرسول ﷺ بيد العلاء فهو (المنذر بن ساوى العبدي التميمي) وينتسب إلى بني دارم . وفي رواية أخرى أنه من قبيلة عبد القيس التي كانت تسكن تهامة ثم نزلت البحرين فزاحمت قبيلة بكر بن وائل وتميم وكان المنذر بن ساوى مستقلاً في البحرين وإسلامه وأتباعه للنبي ﷺ له أسباب أعمق وأبعد لأنه كان هناك أعمال بين النبي ﷺ وبعض أهالي البحرين وفيهم من كان يدافع عن الإسلام في حياة

الرسول ﷺ ويتبين من كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر أنه ارتبط بالنبي لعوامل سياسية وذلك للاحتفاظ بسلطته في البحرين بدليل أنه بقي في السلطة بعد إسلامه حتى وفاته ١١هـ . أما عمال الرسول إلى البحرين فكان عملهم محدوداً في نطاق الأمور المالية ولم يكن لهم سلطان سياسي ولعله حاول نشر الإسلام في البحرين ووافق على دخول الجباة المرسلين من المدينة إليها وإرسال أموال الجباية إلى المدينة لتزيد من قوته[١٤] . هذا إذا ما وضعنا في مقدمة الأسباب العامل الديني وهو قوة العقيدة الإسلامية وهذا رد على رأي (كايتاني) الذي يذكر أن انتشار الإسلام كان ضعيفاً في البحرين لأن المصادر تجمع على أن عرب البحرين دخلوا كلهم في الإسلام كما أن هناك علاقة قديمة بين الحجاز والبحرين عن طريق التجارة[١٥] ونحن نعلم أن التجارة من وسائل نقل الحضارة ولما كان الدين مظهراً من مظاهر الحضارة لذا فقد نقل التجار الدين الإسلامي إلى أماكن انتشر فيها الإسلام دون حرب أو قتال .

يتفق المؤرخون والمحدثون وأصحاب السير على أن رسول الله ﷺ أرسل رسائل إلى ملوك وأمراء عصره يدعوهم فيها للإسلام . ولكن تلك الرسائل لم تؤرخ لذا اجتهد البعض في ترتيبها وفقاً لمحتواها والمناسبة التي أرسلت لأجلها . فإن الرسالة الأولى التي أرسلها إلى (المنذر بن ساوى) في السنة الثامنة للهجرة الموافق في ٦٣٠م وفيها عرض ﷺ على المنذر الدعوة للإسلام ونقل الرسالة موفده (العلاء بن عبدالله الحضرمي) وأوصاه رسول الله ﷺ حين بعثه إلى البحرين بقوله : "إن أجابك فأقم حتى يأتيك أمري، وخذ الصدقة من أغنيائهم وردها إلى فقرائهم" فطلب العلاء من رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً وهي الرسالة الأولى من بين الرسائل التي أرسلت للبحرين على ما ورد في معظم المصادر وهذا نصها[١٦] :

بسم الله الرحمن الرحيم

"من محمد رسول الله إلى الأكبر بن عبدقيس :

إنهم آمنون بأمان الله ورسوله على ما أحدثوا في الجاهلية من القحم، وعليهم الوفاء بما عاهدوا ولهم أن لا يحبسوا عن طريق الميرة ولا يمنعوا صوب القطر ولا يحرموا حريم الثمار عند بلوغه . والعلاء الحضرمي أمين رسول الله ﷺ على برها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها وأهل البحرين خفراؤه من الضيم وأعوانه على الظالم وأنصاره في الملاحم، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه لا يبدلوه قولاً، ولا يريدون فرقة، ولهم على جند المسلمين الشركة في الفيء، والعدل في الحكم والقصد في السيرة، حكم لا تبديل له في الفريقين كليهما، والله ورسوله يشهد عليهم"[٢٠] .

ثم أجاب المنذر لرسول الله ﷺ بكتاب قال فيه :

"أما بعد يا رسول الله فإني قرأت كتابكم على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه فلم يدخل فيه وبأرضي يوجد يهود ومجوس فأحدث إلي أمرك بذلك"[٢١] .

وفي هذه الرسالةأن المنذر صدق وأسلم وأن من أهل البحرين من استجاب للدعوة ومنهم من لم يستجب ويطلب من رسول الله ﷺ أن يخبره عن موقفه تجاه المجوس واليهود في البحرين . فكتب الرسول ﷺ إلى العلاء كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

" أما بعد فإني قد بعثت إلى المنذر بن ساوى من يقضي منه ما اجتمع عنده من الجزية فعجله بها وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور والسلام" كتبه أُبَيَّ

– وكاتب هذه الرسالة من كتّاب الرسول ﷺ وهو (أُبيّ بن كعب الخزرجي الأنصاري) وفيها أن المنذر جمع الجزية ممن بقوا على دينهم كالمجوس واليهود والنصارى . أما (الصدقات والعشور) فقد قام العلاء بجمعها بأمر رسول الله ﷺ . وأرسل العلاء ثمانين ألف درهم من البحرين والثابت أن رسول الله ﷺ أرسل للمنذر جواباً بشأن المجوس واليهود في البحرين كما أرسل إلى مجوس هجر رسالة وقيل أنه أرسلها إلى المنذر بخصوص معالجة أمر مجوس هجر[٢٢] .

وفي الرسالة الرابعة التي أرسلها ﷺ إلى المنذر والتي اعتبرها البعض هي الرسالة الثالثة وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

"من محمد إلى منذر بن ساوى

سلم أنت . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن كتابك جاءني وسمعت ما فيه، فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ومن أبى فعليه الجزية" .

وأورد أبو يوسف القاضي نص الرسالة وهي :

وأرسل رسول الله ﷺ رسالة إلى (سيبخت) مرزبان هجر أي الحاكم في هجر رداً على رسالته فجعله الرسول يشفع في قومه أي جعل له السلطة الإدارية في قومه الذين سماهم رسول الله ﷺ (بني عبد الله) وليس لدينا معلومات عنه وإنما أرسل الرسالة إليه بيد الأقرع التميمي والذي جعله عاملاً للصدقة وقد أقنع الأقرع قومه من بني تميم للدخول في الإسلام بعد أن اتجه وفد منهم إلى الرسول ﷺ وأسلموا . وإليك هذه الرسالة إلى سيبخت صاحب هجر والتي أوردها ابن سعد بقوله :

"إلى سيبخت بن عبد الله صاحب هجر

إنه قد جاءني الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك، وإني قد شفعتك وصدقت رسولك الأقرع في قومك، فأبشر فيما سألتني بالذي تحب ولكني نظرت أن أعلمه فتلقاني، فإن جئتنا أكرمك، وإن تقعد أكرمك .

أما بعد فإني لا أستهدي أحداً، فإن تهد إليّ أقبل هديتك وقد حمد عمالي مكانك وأوصيك بأحسن الذي أنت عليه من الصلاة والزكاة وقرابة المؤمنين وأني قد سميت قومك بني عبد الله فمرهم بالصلاة وبأحسن العمل وأبشر، والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين" .

وفي رسالة أخرى إلى أهل البحرين بأن لهم ما أسلموا عليه إن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ولم يمجسوا أولادهم وعليهم هدم وتخريب بيوت النار وإن وجدفيها مال أو ذهب فيجب أن يجعل ذلك لله ورسوله وإليك نص الرسالة :

"أما بعد فإنكم إذا أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة ونصحتم لله ورسوله، وآتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب ولم تمجسوا أولادكم فلكم ما أسلمتم عليه، غير أن بيت النار لله ورسوله، وإن أبيتم فعليكم الجزية"(٣٦).

أما الرسالة التالية والأخيرة فربما أنها أرسلت مع وفد الجارود ويتضح منها أن اتفاقاً تم بين الرسول ﷺ وقبيلة عبد القيس في البحرين وما حولها إذا أسلموا وأطاعوا الله ورسوله وأقاموا أركان الدين والعدل بينهم وعليهم أخذ الصدقات من أغنيائهم إلى فقرائهم وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

"هذا كتاب من محمد رسول الله لعبد القيس وحاشيتها من البحرين وما حولها، إنكم أتيتموني مسلمين، مؤمنين بالله ورسوله، وعاهدتم على دينه فقبلت على أن تطيعوا الله ورسوله فيما أحببتم وكرهتم، وتقيموا الصلاة وتؤدوا الزكاة وتحجوا البيت وتصوموا رمضان، وكونوا قائمين لله بالقسط ولو على أنفسكم، وعلى أن تؤخذ من حواشي أموال أغنيائكم فترد على فقرائكم، على فريضة الله ورسوله في أموال المسلمين"(٣٧).

دخلت البحرين في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دون قتال(٣٨) حين بعث عليه الصلاة والسلام موفده وسفيره (العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ومعه رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام فأسلم المنذر ومعه أسلم العرب وبعض العجم(٣٩).

جاءت بوران أخته . فأدى تدخل النساء في الحكم وانتشار الدسائس وغيرها إلى إضعاف الدولة الفارسية وكانت من العوامل التي ساعدت على قبول الإسلام دين السلام والحرية والعدالة الاجتماعية . ومن هذا العرض للأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد الفرس وقتئذ يثبت أنه لم يوجد لدولة الفرس نفوذ على البحرين لأنها في حالة ضعف وتدهور .

د. علي أباحسين

الهوامش

١ – مسلم، صحيح مسلم جـ ٣، ص٣٩١ بشرح النووي (باب الجهاد) ؛ و د. عز الدين إبراهيم، الدراسات المتعلقة برسائل النبي، المؤرخ العربي ٢٣/٢٤٠/١٩٨٣م .

٢ – أحمد بن حنبل، المسند ١/٢٦٢ و ٤/٧٤ و٧٥ ؛ وأبو داود، حديث ٤٢١٤ ؛ والنسائي جـ ٨ ص١٧٤ ؛وابن ماجه، حديث ٣٦٣٩/٣٦٤٠ ؛ وابن سعد، الطبقات ١/٢٥٨ وما بعدها ؛ وابن كثير، السيرة جـ٣/٤٩٤ ؛ والطبري، تاريخه ٣/١٥٥٩ ؛ وانظر محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص١١ و٧٤ ؛ والقلقشندي، صبح الأعشى ٦/٣٧٧ ؛وابن سيد الناس، عيون الأثر، ٢/٢٥٩ و٢٧٠ ؛ والحلبي، السيرة الحلبية ٣/٥٥–٩٠ ؛ وأبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص٣٣٣–٢٥٤ ؛ والمؤرخ العربي ٢٣/٢٤٢–٢٤٣ .

٣ – وليام ميور، حياة محمد، ص٣٥٤–٣٥٧ ؛ وليون كايتاني، حوليات الإسلام، ١/٧٢٥ ؛ ومرجوليوت، محمد، ص٣٦٤ .

٤ – توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام ص٨٣ .

٥ – نولدكه، دبلوماسية محمد، ص٨٣ .

٦ – ابن هشام، سيرة ابن هشام، ٤/٢٥٤–٢٥٥ تحقيق السقا ؛ والمؤرخ العربي، العدد٢٣/ص٢٤٥ .

٧ – ابن خلدون، المقدمة

٨ – أبو الحسن الندوي، السيرة، ص٣٣٣ ؛ والدراسات المتعلقة برسائل الرسول، ص٢٥٢ .

٩ – الوثيقة ٥/١٥ .

١٠ – الوثيقة، ١/٤١ .

١١ – فالح حنظل، رسائل الرسول، ص٤٩ و٥٠ و٥٧ ؛ الكتور عون الشريف قاسم نشأة الدولة الإسلامية، ص٧٧ ؛ والوثيقة ٦/١٤ ؛ والوثيقة ٥/١٢ .

١٢ – البحرين في صدر الإسلام، ص١٠١ .

١٣ – الوثيقة، ١/٤٣ و٤٩ ؛ ورسائل الرسول، ص٥٧ ؛ والوثيقة ٤/٥٣ و٦/١٤ .

١٤ – البحرين في صدر الإسلام، ص١٠٢ .

١٥ – ياقوت، ص٥٠٨ ؛ والبلاذري ٧٨ ؛ والبحرين في صدر الإسلام، ص١٠٣ .

١٦ – مجموعة الوثائق السياسية والخلافة، ص٧٩–٨٠ ؛ ورساءل الرسول، ص٥٧–٥٨ ؛ والوثيقة، ١٢/٥ و١٣/٦ حيث وردت كلمة (يديك) كما وردت في مصادر أخرى (يدك) .

١٧ – الوثيقة، ١٤/٦ ؛ ورسائل الرسول وموفدوه، ص٥٧ ؛ ابن طولون، أعلام السائلين، ص١٤١ .

١٨ – ن.م.س. /ص٥٨–٦٠ .

١٩ – الوثيقة، ٤٦/١ .

٢٠ – طبقات ابن سعد ٢٨٣ ؛ورسائل الرسول وموفدوه، ص٥٩ ؛ والوثيقة ١٤/٦ .

٢١ – ن.م.س، ص٦٠ .

٢٢ – فتوح البلدان، ص٩٢، والوثيقة ١٤/٥ ؛ ورسائل الرسول، ص٦٠–٦١ ؛ وفي الوثيقة ١٩/٦ أورد نص الرسالة كالتالي : "أما بعد فإني بعثت إلى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية فعجله وابعث ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور والسلام" . (وكتب أبيّ بن كعب)

٢٣ – فتوح البلدان، ص٩١ ؛ رسائل الرسول، ص٦٣ ؛ والوثيقة ١٣/٥و١٤ ؛ وفي الوثيقة ١٨/٦ اعتبرت الرسالة الثالثة ؛ وأبو يوسف القاضي، الخراج، ص١٣١ .

٢٤ – الوثيقة، ١٨/٦ .

٢٥ – فتوح البلدان، ص٩١ ؛ حالم : بلغ الحلم والرشد ؛ رسائل الرسول وموفدوه، ص٦٤ ؛ والوثيقة ١٦/٦ .

٢٦ – رسائل الرسول، ص٦٥، والوثيقة ١٣/٥ وفيها وردت كلمة (عندي) بدلاً من (أتاني) . كما أن (لو) لم ترد في الوثيقة ١٣/٥، أما العدد ٦/صفحة ١٦ فلم ترد فيه الرسالة أصلاً .

٢٧ – ن.م.س/ص٦٦ ؛ وفي الوثيقة بعددها الخامس/ص١٣و١٤ لم يذكر (لا) فيجملة (وأن لا تغووا) كما وردت (أجمل) بدلاً من (يحمل)، وحذف (لن) يضل ، وحذف (له) عند الله .

٢٨ – الطبقات الكبرى – ٧٧/٢ ؛ ورسائل الرسول، ص٦٨ .

٢٩ – الوثيقة ٤٣/١ و١٣/٥ و١٧/٦ .

٣٠ – الوثيقة ٤٣/١ ؛ ورسائل الرسول وموفدوه، ص٥٠ .

٣١ – بوش، المستشرقون الألمان، ج ١٧ ؛ والمؤرخ العربي، ٢٣/ص٢٥٦ ؛ ورسائل الرسول وموفدوه /ص٦٩ و٧٠ .

٣٢ – فتوح البلدان، ص٩٠؛ وسورة المائدة /آية ٥؛ ورسائل الرسول ص٧١ .

٣٣ – رسائل الرسول ص٦١و٧٢، والوثيقة ٤٩/١ و١٤/٥ و١٩/٦ .

٣٤ – ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج/ص؛ ورسائل الرسول وموفدوه، ص٧٣ .

٣٥ – ابن سعد، الطبقات الكبرى ج/ص؛ ورسائل الرسول وموفدوه ص٧٣ .

٣٦ – فتوح البلدان، ص٧٩؛ ورسائل الرسول ص٨٠ .

٣٧ – رسائل الرسول، ص٨١ .

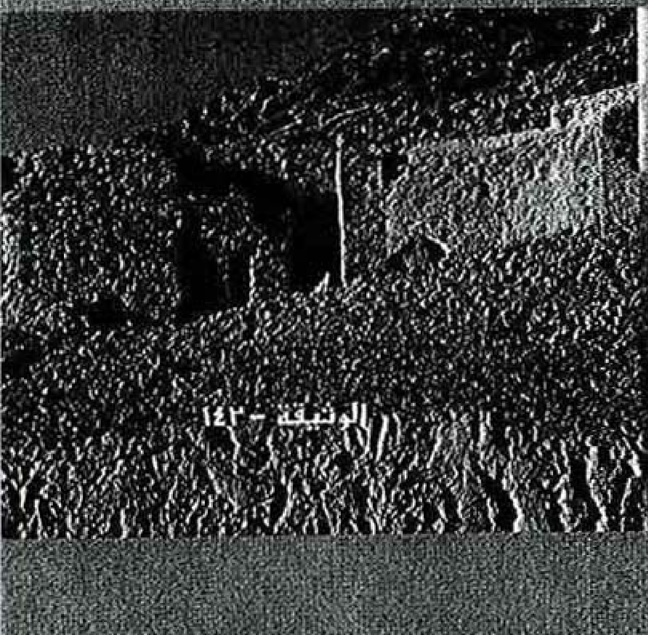
٣٨ – ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧٦/٢؛والبكري، معجم ما استعجم، ص١٣٠و٢٢٨و٥٦٥ ؛ ود. النجم، البحرين في صدر الإسلام، ص١٠١ .

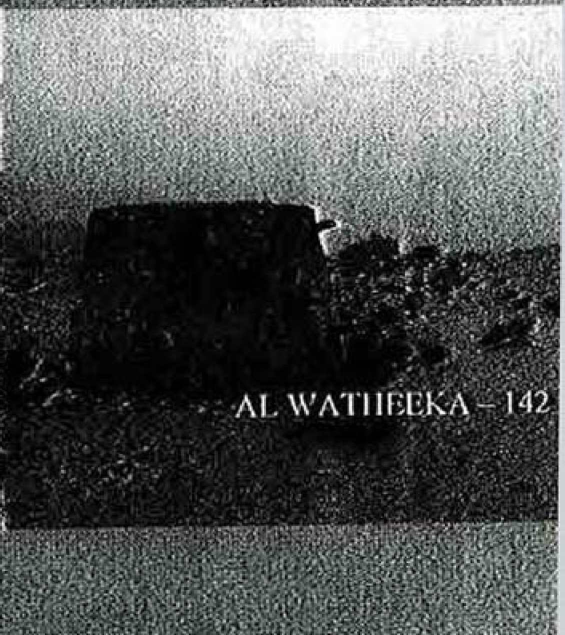
٣٩ – البلاذري، فتوح البلدان، ٧٨ و٨٠ ؛ وياقوت، معجم البلدان، ٥٠٩/١ ؛ والبحرين في صدر الإسلام، ص١٠١ .

٤٠ – فتوح البلدان، ص٨٩ ؛ وفالح حنظل، رسائل الرسول وموفدوه ص٥٥ و٥٦؛ والوثيقة ١٢/٦ .

الآبار التي تمتد من الجاهلية..

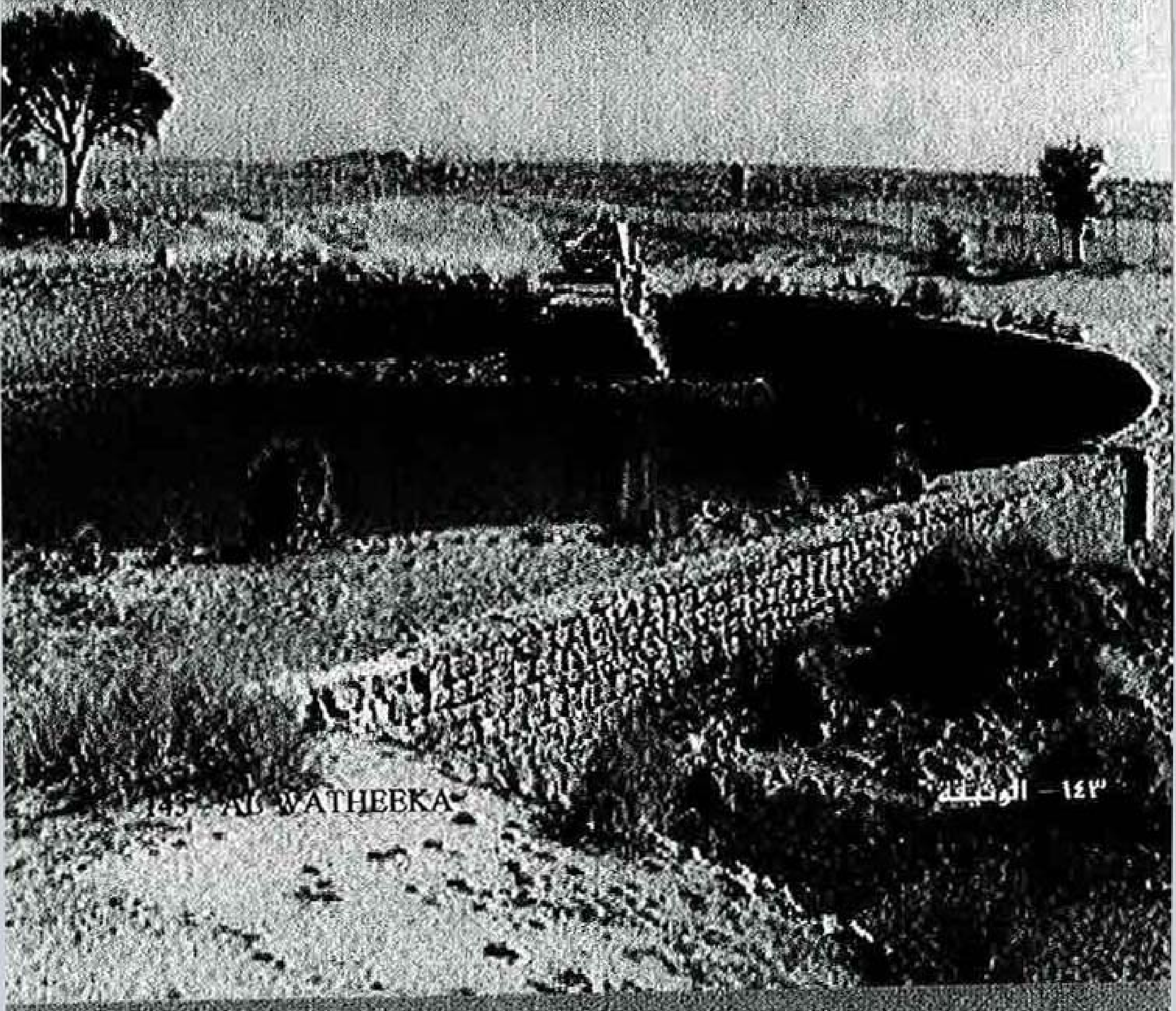
بقلم :
د/ نعيمة بنت عبد الله بن دهيش





مكة المكرمة بالمياه «٢»

وحتى القرن العاشر الهجري



عرضنا في الجزء الأول من هذه الدراسة التي نشرت في العدد الماضي للآبار التي كانت موجودة في مكة المكرمة مع شرح مستفيض لبئر زمزم لمكانتها وفضلها وأهميتها . . ونستكمل في هذا الجزء ما بقي من هذه الدراسة وتبدأ بما بذلته المملكة العربية السعودية من الاهتمام ببئر زمزم ثم تعرض للآبار التي حفرت بعد زمزم في الجاهلية وذلك من خلال هذه الدراسة الرائعة والشاملة للباحثة الدكتورة نعيمة بنت عبد الله بن دهيش .

الوثيقة

اهتمام الدولة السعودية ببئر زمزم

اهتمت حكومة المملكة العربية السعودية ببئر زمزم، كما اهتمت بعمارة وتوسعة الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة أبلغ الاهتمام، وقد استبدلت الدولة السعودية الدلاء التي كان الحجيج وأهل مكة يستقون بها من البئر بتركيب مضخة لتضخ الماء إلى الخزان عام ١٣٧٣هـ، ومن الخزان إلى الصنابير حول مبنى البئر .

ثم في بداية عام ١٤٠٠هـ تم تنظيف بئر زمزم وتطهيرها وتم تركيب مضخات كبيرة وحديثة لضخ جميع المياه الموجودة في البئر .

وقال دكتور عبد الله نذير محقق البحر العميق : "تقع بئر زمزم على بعد ٢١م من الكعبة المشرفة، وأفادت الدراسات أن العيون المغذية للبئر تضخُّ ما بين ١١ إلى ١٨,٥ لتر من الماء في الثانية الواحدة، وفي الساعة (٣٩,٦٠٠ لتر)، ومن العيون المغذية فتحة في اتجاه الحجر الأسود بطول (٧٥ سم) وارتفاع (٣٠ سم) ويتدفق منها القدر الأكبر من الماء، وهناك فتحة باتجاه المكبرية بطول (٧٠ سم) وارتفاع (٣٠ سم)، وفتحات صغيرة أخرى باتجاه الصفا والمروة، كما تم إزالة بناء كان قائماً على البئر، وكان يغطيه بمساحة (٨,٣٠ م × ١٠,٧م) وقد هدم ما بين عامي ١٣٨١ – ١٣٨٨هـ من أجل توسعة المطاف"[١] .

ونقل مكان شرب زمزم إلى بدروم مكيف أسفل المطاف، يتم النـزول إليه بـ ٢٣ درجة بمدخل منفصل للرجال وأخر للنساء، ومن داخل هذا البدروم يمكن رؤية البئر داخل حيز من الزجاج، ولازدياد عدد الحجيج عاماً بعد عام، فقد رأت الحكومة السعودية سددها الله زيادة مساحة المطاف، فأدخلت بئر زمزم الذي كان في البدروم المشار إليه، في توسعة المطاف، وتم إغلاق البدروم ومدخله، وجعله ضمن الطواف، وتم تحويل مسار ماء زمزم إلى صنابير مياه داخل وخارج الحرم المكي الشريف، وكان ذلك في عام ١٤٢٤هـ .

وقد كانت الحكومة السعودية في عام ١٤١٥هـ قد نفذت بناء أمدت مياه زمزم إليه يقع في كدى، مزوداً بأجهزة لنقل المياه من البئر إلى خزان خرساني مسلح ضخم تبلغ سعته (١٥,٠٠٠م^{٣})، وهو مرتبط بالخزان العلوي الذي يقوم بخدمة نقاط التغذية حول المسجد الحرام لتعبئة الجوالين للراغبين في الاستفادة من ماء زمزم في البيوت والأحياء والمدن السعودية الأخرى، ومن هذا الخزان يتم تعبئة السيارات إلى المسجد النبوي الشريف وإلى سائر مدن المملكة .

وصف البئر أثناء تنظيفها :

يقول المهندس الكوشك أنهم قاموا بقياس عرض البئر أثناء تكليفه بتنظيفها كل حوالي أربعة أمتار وتبين أن البئر من الداخل محكمة التلبيس بعمق أربعة عشر مترا وثمانين سنتيمترا من فوهة البئر، وتحت هذا العمق يوجد فتحتان لتغذية البئر إحداهما متجهة إلى الكعبة المشرفة والثانية إلى أجياد ثم جزء منقور في الجبل بعمق ١٧,٢٠ مترا[٢] .

ومن الملاحظ أن هذه القياسات قريبة من القياسات التي وردت في الروايات التاريخية التي اتفق معظمها على أن غورها من رأسها إلى الجبل أربعون ذراعا (٢٢,٥ مترا) وكله بنيان وما بقي فهو جبل منقور وهو تسعة وعشرون ذراعا (١٦,٢٥ مترا)[٣] .

ويعود الفرق في عمق الجزء المبنى بين الوقت الحاضر والروايات التاريخية إلى أن بئر زمزم الآن منخفضة عن الكعبة المشرفة تحت سطح أرضية المطاف بينما كانت في السابق فوق سطح الأرض .

أما بالنسبة للجزء المنقور في الجبل فيتبين أن هناك فرقا يقدر بحوالي متر واحد وذلك نتيجة لعملية تنظيف البئر[٤] .

ويختلف قطر البئر باختلاف العمق فهو يتراوح بين ١,٥ متر ومترين ويصل القطر عند التقاء الجزء المبنى بالجزء المنقور بالجبل إلى ١,٨٠ متر حيث توجد المصادر الرئيسية للبئر وهي مبنية بصفين من الحجارة وهي على النحو التالي :

١- المصدر الرئيسي : وهو عبارة عن فتحة تتجه جهة الكعبة المشرفة في اتجاه الركن المواجه لحجر إسماعيل وطولها ٤٥ سم وارتفاعها ٣٠ سم وبها

غور إلى الداخل ويتدفق منها القدر الأكبر من المياه . وهذا يتفق مع ما ورد في الروايات التاريخية .

٢- **المصدر الثاني** : وهو عبارة عن فتحة كبيرة بطول ٧٠ سم ومقسومة من الداخل إلى فتحتين وارتفاعها ٣٠ سم باتجاه أجياد .

٣- **المصادر الفرعية** : وهي فتحات صغيرة بين أحجار البناء تخرج منها المياه. توجد خمس منها في المسافة التي بين الفتحتين الأساسيتين وقدرها متر واحد كما يوجد ٢١ فتحة أخرى تبدأ من جوار الفتحة الأساسية الأولى وباتجاه جبل أبي قبيس والصفا والمروة حتى تصل إلى الفتحة الثانية وهذه الفتحات لا توجد على مستوى واحد ولكنها على مستويات مختلفة وتتدفق منها المياه بكميات متفاوتة(*) .

ومن الملاحظ أن الروايات التاريخية تحدثت عن وجود ثلاث عيون عين حذاء الركن الأسود وعين حذاء أبي قبيس والصفا وعين حذاء المروة بينما تبين بالمشاهدة أن هناك مصدرين أساسيين فقط أحدهما تجاه الكعبة والآخر تجاه أجياد أما المصدر الثالث التي قالت الروايات التاريخية أنه جهة جبل أبي قبيس والصفا فقد وجدت بدلا منه تلك الفتحات الصغيرة بين أحجار البناء وعددها ٢١ فتحة . ومن المحتمل أنه عند قفل هذا المصدر عند إصلاح بئر زمزم سنة ١٠٢٨ هـ تفجرت المياه من بين حجارة البناء .

فقد ذكر الغازي في تاريخه عن العلامة الخضراوي ﷺ في تاج تواريخ البشر أنه في شهر رمضان ١٠٢٨هـ وقع في بئر زمزم أحجار كثيرة من الجهة الشامية والغربية وقد أصلحت في يوم الاثنين الرابع من شهر شوال سنة ١٠٢٨هـ وتم البناء يوم السادس عشر من شوال فما باشر الماء جعل رضما من غير جبس ولا نوره وما لم يباشر الماء جعل بالنورة والجبس .

المنعشة والاستمتاع بها . وهذه المياه طبيعية تماما ولا يتم معالجتها أو إضافة الكلور إليها .

وأوضح البحث أن بئر زمزم يبلغ عمقها ٣٠ مترًا على جزأين، الجزء الأول مبني عمقه ٨,١٢ مترًا عن فتحة البئر، والثاني جزء منقور في صخر الجبل وطوله ٢٠,١٧ متر، ويبلغ عمق مستوى الماء عن فتحة البئر حوالي أربعة أمتار، وعمق العيون التي تغذي البئر عن فتحة البئر ١٣ مترًا ومن العيون إلى قعر البئر ١٧مترًا .

كما أن بئر زمزم تقع على بعد ٢١ مترًا من الكعبة المشرفة، وأفادت الدراسات أن العيون المغذية للبئر تضخ ما بين ١١ إلى ٤٣ لترا من الماء في الثانية، ومجمع مياه زمزم في بمكة مزود بأجهزة لنقل المياه من البئر إلى خزان خرساني سعته ١٥٠٠٠ متر مكعب، مرتبط مع خزان علوي يقوم بخدمة نقاط التغذية لتعبئة ونقل الماء بالسيارات إلى أماكن مختلفة خصوصًا إلى المسجد النبوي الشريف .

وأما بالنسبة للمياه المعبأة في زجاجات من الشركات المختلفة، فنجد أن تركيز الأملاح المعدنية فيها في نفس مستوي المياه العادية، ولكنها أقل في التركيز عن الحد الأدنى القياسي في بعض الشركات، مما يخرج كل هذه الأنواع تماما من التصنيف المسمي بالمياه المعدنية مؤكدا أن المياه المعدنية والتي تعتبر مياه زمزم علي رأس القائمة لهذا النوع من المياه مهمة بشكل أساسي لصحة الإنسان ولذلك هناك الكثير من الأدوية التي يتم وصفها للمرضي تحتوي علي هذه الأملاح، مع الأخذ في الاعتبار أن عنصر الصوديوم تزداد أهميته فقط في المناطق الحارة لما يفقده الجسم مع العرق، كما أنه يجب أن تكون لمياه الشرب خصوصية التعامل ولا تعتبر المياه الناتجة من وحدات التنقية صالحة

للشرب بأي حال رغم نقائها بيولوجيا بسبب النقص الشديد في تركيز الأملاح المعدنية وغير المعدنية فيها إلا إذا كان من يشربها يحصل علي الأملاح من مصادرها الأخرى مثل الفواكه والأطعمة المختلفة، واتضح كذلك أن المياه المعبأة في زجاجات محليًا ليس فيها أملاح معدنية، وبالتالي لا يمكن أن يدعى منتجوها أنها مياه معدنية، فهي لا تتميز عن مياه الفلتر العادي (مياه الصنبور) في شيء سوي النقاء .

الآبار التي حفرت بعد زمزم من الجاهلية وحتى القرن العاشر الهجري :

١ – بئر الأسود بن البَخْتَرِي[١٢] :

كانت على باب دار الأسود عند الحناطين، دخلت في دار زبيدة الكبيرة عند الحناطين، والبئر قائمة في أسفل الدار إلى اليوم[١٣] .

٢ – بئر ركايا قُدامة بن مَظْعون :

قال الأزرقي : وركايا قُدامة بن مَظْعون، حذاء أضاءة النبط بعُرَنة، في شقها الذي يلي مكة، قريباً من اليسيرة[١٤] .

٣ – بئر خُوَيْطِب بن عبد العزى :

وبئر خُوَيْطِب بن عبد العزى في بطن وادي مكة، بين دار حويطب[١٥] .

٤ – بئر مولاة الخيرزان :

والبئر التي نثلت خالصة مولاة الخَيْزُران بالسقيا، في المسيل الذي يفرع بين مأزمي عرفة ومسجد إبراهيم[١٦] .

٥ - بئر بأجياد :

وبئر بأجياد في دار زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي[١٧] .

ومن الآبار التي حفرت بعد زمزم في الإسلام .

٦ - بئر الياقوتة :

قال الأزرقي : "الياقوتة التي بمنى حفرها أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته، فعملها الحجاج بن يوسف الثقفي بعد مقتل ابن الزبير رضي الله عنه، وضرب فيها وأحكمها"[١٨] .

٧ - بئر عمرو بن عثمان بن عفان :

تنسب لعمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وهي بمنى في شعب آل عمرو[١٩] .

قال الفاكهي : "ومنها يشرب اليوم الناس بمنى، ويسكبون الماء في مضاربهم"[٢٠] .

قال ابن دهيش : "ولعله ما يسمى الآن بحارة قريش بمنى، فهي التي ينطبق عليها هذا الوصف، والآبار في حارة قريش خمس آبار، ولكنها لا تعرف بهذا الاسم اليوم"[٢١] .

٨ - بئر الشركاء :

يوجد بأجياد لبني مخزوم[٢٢] .

٩ - بئر عكرمة :

بأجياد الصغير في الشعب الذي يقال له الأيسر[٢٣] .

قال ابن دهيش : "وقد سمي هذا الشعب في مواضع شق مسفلة مكة اليماني: شعب المتكأ، وذكر أنه بأقصى شعب أجياد الصغير وأن هذه البئر حفرتها زينب بنت سليمان بن علي"[٢٤] .

١٠ - بئر الصلا :

وتسمى أيضاً بئر الأسود بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي في أصل ثنية أم قردان[٢٥] .

والفاكهي لم يسمها (الصلا) بل عدها عدة آبار، وقال أنها للأسود بن سفيان[٢٦] .

قال ابن دهيش : "موضع آبار الأسود بالقرب من بئر ابن الزبير بالخماشية"[٢٧] .

١١ - بئر الطلوب :

كانت لعمرو بن عبد الله بن صفوان الجُمَحي في شعب عمرو بالرَمَضة دون المَيْثب[٢٨] .

قال ابن دهيش : وبِئر الطلوب : هذه البئر بالرَمَضة دون الميثب، والرَمَضة ما يسمى اليوم بقوز النكّاسة، وهو جزء من المسفلة يخترقه الطريق الدائري الثالث، والميثب مطلّ على قوز النكّاسة من الشرق، وهذه البئر لا زالت موجودة على يسارك وأنت متّجه إلى أسفل مكة، وهي البئر الموجودة في بستان الشيخ عبد الله أحمد كعكي، وهي بئر قديمة كبيرة، وقد خطط هذا البستان وأصبح منطقة سكنية[٢٩] .

١٢ - بئر أبي موسى الأشعري:

بالمعلاة على فم شعب أبي دُبّ بالحَجُون، حفرها حين انصرف من الحَكَمين إلى مكة[30]، ثم اندملت فلم تزل مدمولة حتى نثلها بغا مولى أمير المؤمنين في سنة اثنتين وأربعين ومائتين على يد وكيله ابن شَلقان وهي قائمة إلى اليوم، أي في زمن الفاكهي[31].

قال ابن دهيش : "هذه البئر، غالب ظني أنها البئر التي كانت تسمى (بئر غَيْلَمَة) بفُوَّهة دَحْلة الجن، وكانت العامة تسميها (حوض أبي طالب) وقد دُثرا وأُدخلا عندما وسّع شارع المسجد الحرام"[32].

١٣ - بئر شَوْذَب:

كانت عند باب المسجد، عند باب بني شيبة، فدخلتْ في المسجد الحرام حين وسّعه المهدي في خلافته في الزيادة الأولى، في سنة إحدى وستين ومائة، وشَوْذَب : مولى لمعاوية بن أبي سفيان"[33].

١٤ - بئر البرود:

بفَخّ، حفرها خِراش بن أمية الخزاعي الكعبي[34]. وفيها يقول الشاعر :

بين البرود وبين بلدح ملتقي[35].

وموقعها بين مكة ووادي فاطمة على طريق مكة المكرمة — المدينة المنورة.

قال ابن دهيش : والبرود في الأصل : هو الجبل الذي قُتل عنده الحسن بن علي بن الحسين بن حسن بن علي بن أبي طالب، يوم فخّ، ويعرف اليوم بـ (جبل الشهيد) وهو يشرف على حي الشهداء من الغرب، وهناك خمس آبار قديمة لا زالت أمانة العاصمة تضخّ منها المياه، وإحداها يقال لها: بئر الكردي، وثلاث منها معطّلة، فيها مياه آسنة، ولم أستطع أن أجزم أيها هو البرود[36].

وهناك برود آخر في مجتمع طريقِ حجاج العراق ونجد – سابقاً – تقع اليوم على يمين الذاهب من الطريق المزفت إلى الجِعْرانة، قبل الجعرانة بخمسة كيلومترات تقريباً، وتبعد عن طريق الجعرانة أكثر من كيلو متر واحد شرقاً، يسلك إليها من طريق ترابي. وهناك في هذا الموضع بئر عظيمة، وقفت عليها، وبقربها حياض واسعة، وآثار سدود، وقنوات للمياه، تصل بين هذه الحياض وبين مجرى عين يذهب حتى يلتقي مع مجرى عين زبيدة الآتي من المُشاش، عند الربع الأخضر. وقد أشار الفاكهي إلى نحو ذلك(٣٧).

ثم زاد ابن دهيش قوله : عندما وقفت عليها رأيت ماءها ثراً، وقد غطيت البئر بألواح من الحديد، وأقيمت عليها مضخَّة مياه، وبنيت عندها حجرة صغيرة لهذه المضخَّة(٣٨).

وقد وصف هذه البئر إبراهيم رفعت، حيث قال: "والبئر مطوية بالحجارة المنحوتة، قطرها ستة أمتار، وعمقها اثنا عشر متراً، ماؤها عذب، لا يزيد ارتفاعه في قاعه عن خمسين سنتيماً"(٣٩).

١٥ – بئر بَكّار:

بذي طوى، عند مماد بكّار. وبكّار : رجل من أهل العراق، كان يسكن مكة وأقام فيها(٤٠).

قال ابن دهيش : وبئر بكار : موضعها في الحفاير اليوم، وثنية الحَزَنَة : هي (ربع الحفاير) الآن. وذكر الفاكهي أنك إذا هبطت من ربع الحَزَنَة تهبط على الممادر – الحفاير – بئر بكار.

وأضاف ابن دهيش : ويوجد الآن جنوب مسجد الطُبَيْشي بالحفاير بئر قديمة مدمولة، في وسط ملتقى أزقّة هناك، فلعلها هي، إذ ينطبق عليها وصف الفاكهي، والله أعلم(٤١).

قلت : ربما لا يكون ذلك صحيحاً فبئر ذي طوى التي هي بجرول حالياً قد صرح بمسماها منذ القدم، وسوف أذكر ما كتبه المؤرخون عن هذه البئر فيما يأتي بعد .

٢٦ - بئر ذي طوى

بئر بجرول بات به النبي ﷺ حتى أصبح واغتسل من ماء بئره وصلى ثم دخل مكة المكرمة كما روى البخاري أن النبي ﷺ بات بذي طوى حتى أصبح ثم دخل مكة[٥٨] .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يقدم مكة المكرمة إلا بات بذي طوى حتى يصبح ويغتسل ثم يدخل مكة نهاراً ويذكر أن النبي ﷺ أنه فعله .

وقد ورد في رواية مسلم ذكر المسجد الذي بني قريباً من مصلى رسول الله ﷺ وذكره الفاكهي بمسجد النبي ﷺ وكان قريباً من البئر على يمين المتجه إليها وبقي المسجد معروفاً إلى أن أزيل لتوسعة الشارع، أما البئر فمازالت موجودة بجرول مقابل مستشفى الولادة وخلف عمارة الجفري المبنية حديثاً . وتعرف ببئر ذي طوى[٥٩] .

وقال عاتق بن غيث البلادي في معجم معالم الحجاز : "ذو طوى : هو الذي يجزعه الطريق من ثنية كداء - الحجون اليوم - وبين الثنية الخضـراء - ريع الكحل اليوم - ورأسه ريع اللصوص يخرج إلى صدر فخ، وسيله بمسفلة مكة قرب قوز النكاسة، وهو اليوم وسط عمران مكة، ومن أحيائه العتيبية، وجرول، والتنضباوي، ويعتبر أحد أودية مكة الثلاثة المعمورة، وبئر الطوى لا زالت معروفة بات فيه الرسول ليلة الفتح، وهذه البئر يشرف عليها من مطلع الشمس جبل قعيقعان، وجهته هذه تسمى اليوم جبل السودان"[٦٠] .

قلت : طوى : وادٍ من أودية مكة وكله اليوم معمور بأحياء سكنية، وانحصر اسمه الآن في بئر بجرول تسمى بئر طوى، والبئر ما زالت موجودة بجرول مقابل مستشفى الولادة، وقد أُقفلت البئر من قبل البلدية، ولا يُسمح لأحد بالدخول لهذه البئر ، ويجتمع عند البئر مجموعة من الحجاج في موسم الحج، وأصبحت البئر من الآثار المكية الباقية من العهد النبوي حتى الآن .

آبار إضافية حفرت في القرن العاشر الهجري :

ذكر علي الطبري في الأرج المسكي في التاريخ المكي[٦١] عدداً من الآبار التي حفرت بمكة فيما قبل عهده وحتى عهده في القرن العاشر، ومنها تلك الآبار :

٢٧ - بئر بالمسجد الحرام :

حفرت في زيادة دار الندوة، قال علي الطبري : "رأيناها في عمارة الكعبة المشرفة، وهو عام أربعين بعد الألف" .

٢٨ - بئر في رواق باب أم هانئ :

قال علي الطبري : "دفنتها على المهدي العباسي، وجعل عوضها البئر التي عند باب الحزروة، الكائنة في زماننا بالشرشورة المعروفة هناك" .

٢٩ - بئر في بيت زهير بن علي بأجياد :

قال : "ومشهور أن الغسيل من هذه البئر نافع في إزالة الحمى" .

٣٠ - بئر في بيت الشريف محسن بن الحسن :

في حوشه المعروف بحوش الرباعية .

٤٦ - بئر ببستان الصوالق :

مقابل البستان المعروف ببستان ابن دخان على يسار الصاعد إلى المعابدة .

٤٧ - بئر ببستان ابن دخان :

على يمين الصاعد إلى المنحنى .

٤٨ - بئر بالبستان المعروف بالخرمانية :

في المحل المعروف بالمعابدة .

٤٩ - بئران أو أكثر ببستان القاضي حسين المالكي :

٥٠ - بئر في البستان الكائن بالمعابدة :

المعروف ببستان القائد ريحان ابن عقبة .

٥١ - بئر ببستان المريشي :

الكائن بالمنحنى على يسار الصاعد .

٥٢ - بئر بالمنحنى :

على يسار الصاعد في بستان الظهرة .

هذه جملة الآبار التي ذكرها علي الطبري، ونقل قولاً عن التقي أنه كان بمكة ثلاثمائة وخمسون بئراً[٦٢] .

وفي مقال لمحمد خزندار عن آبار مكة المكرمة ذكر اعتقاده بأن المسجد الحرام يقوم على بحيرة مائية جوفية بالإضافة إلى بئر زمزم، وذلك من كثرة الآبار المحيطة بالحرم والتي أدخلت في التوسعات المتكررة للمسجد الحرام، وقد عدد بعدد من هذه الآبار منها : بئر الحمام، والبئر الواقعة بجوار المسجد

الأثري الواقع بأعلى الغزة بجوار دار نجد للشقق المفروشة، وبئر الطوى، والبئر الواقعة بموقع أول مصنع للثلج أقيم بمكة المكرمة في المعلاة، والبئر التي كانت بداخل باب السلام الكبير بجوار بيت اللبني وأدخلت في المسجد الحرام قبل التوسعة السعودية، والبئر الواقعة في رباط العباسي أمام باب اللبني، والبئر التي كانت تعرف ببئر الصابوني بجانب فرن البصري أمام دار الأشي بالقشاشية بالقرب من المسجد الحرام، والبئر الواقعة بأول أجياد، ويظن أن هذه البئر حفرها جبير بن مطعم في العهد الجاهلي[٦٣]، والبئر الواقعة في أول الشبيكة من جهة السوق الصغير بعد الصاغة، والبئر الواقعة بالداوودية بجوار المسجد الحرام[٦٤].

يزيد على ٣ ملايين متر مكعب يومياً ويتم نقل المياه المحلاة عبر خطوط عملاقة من الأنابيب يتجاوز أطوالها ٤ آلاف كيلومتر .

حيث يلاحظ أن قطاع الخدمات – الذي يضم توليد الكهرباء وتحلية المياه – احتل المركز الأول في استهلاك الطاقة بنسبة ٤٤,٥٪ من إجمالي استهلاك الطاقة في المملكة البالغة (٢١٨٠) ألف ب/ي من الزيت الخام المكافئ في عام ٢٠٠٤، بينما احتل المرتبة الثانية كل من قطاع النقل والقطاع الصناعي والتجاري بنسب مقدارها ٢٣,٥٪ لكل منهما لعام ٢٠٠٤، أما باقي القطاعات فقد شكلت نسبة استهلاكها ٤,٨٪ لقطاع الإنشاءات، ١,٦٪ للقطاع المنزلي، وفي حدود ١٪ للقطاع الزراعي .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحثة / د. نعيمة بنت عبد الله بن دهيش

أستاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى – مكة المكرمة

فهرس المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

(أ)

٢ – أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه: الفاكهي، محمد بن إسحاق بن العباس أبو عبد الله، تحقيق: أ.د. عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، ١٩٧٨.

٣ – أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: الأزرقي، محمد بن عبد الله بن أحمد، أبو الوليد الأزرقي (٢٤٤هـ)، تحقيق: أ.د. عبد الملك عبد الله دهيش، توزيع : مكتبة الأسدي – مكة المكرمة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

٤ – الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء لعلي بن عبد القادر الطبري، تحقيق : أشرف أحمد الجمال، نشر : المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م

٥ – إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، للشيخ عبد الله بن محمد الغازي المكي الحنفي (ت ١٣٦٥هـ)، تحقيق : أ.د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، توزيع : مكتبة الأسدي – مكة المكرمة، الطبعة الأولى ، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

(ب)

٦ – البحر العميق في مناسك المعتمر والحاج إلى بيت الله العتيق، أبو البقاء محمد بن أحمد بن محمد بن الضياء المكي الحنفي القرشي (ت ٨٥٤هـ) تحقيق : أ.د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، توزيع : مكتبة الأسدي – مكة المكرمة، الطبعة الأولى ، ١٤٣٣هـ/٢٠١١م .

٧ – البداية والنهاية: ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء (٧٧٤هـ)، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م .

(ت)

٢٥ – صحيح البخاري : البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (٢٥٦هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ.

٢٦ – صحيح ابن حبان : ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد ابن أبي حاتم التيمي، ابن حبان (٣٥٤هـ)، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٢٧ – صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، مطصفى البابي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.

٢٨ – صور من تراث مكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري لعبد الله محمد أبكر ، نشر : مؤسسة علوم القرآن، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

(ط)

٢٩ – طبقات المحدثين بأصفهان والواردين عليها : أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر، أبو الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ)، تحقيق : د/ عبد الغفار البنداري، وسيد كسروي حسن، نشر : دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

(ف)

٣٠ – فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نشر دار الريان للتراث : ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

٣١ – فتوح البلدان : أحمد بن يحيى البلاذري أبو العباس، عبد الله وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، ١٣٧٧هـ .

(ل)

٣٢ – لسان العرب : ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد (٧١١هـ) .

(م)

٣٣ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : ابن حجر الهيتمي، علي بن أبي بكر (٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م .

٣٤ – مرآة الحرمين : إبراهيم رفعت باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ

٣٥ - المستدرك على الصحيحين : الحاكم، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (١٤٥هـ)، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

٣٦ - مسند الإمام أحمد بن حنبل : أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، دار إحياء التراث العربي، مصر، ١٩٩١م .

٣٧ - المصنف : عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ)، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م .

٣٨ - معجم البلدان : ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م .

٣٩ - المعجم الكبير : الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب (٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، الدار العربية للطباعة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م .

٤٠ - مقالة منشورة بجريدة عكاظ، السنة الثامنة والعشرون، العدد ٨٠١٨، الثلاثاء ٧ ذي القعدة ١٤٠٨هـ الموافق ٢١ يوليو ١٩٨٨م، بعنوان : آبار مكة المكرمة، لمحمد علي حزندار .

(ن)

٤١ - نزهة الأنظار والفكر : عبد الستار بن عبد الوهاب دهلوي، نسخة خطية محفوظة بمكتبة الحرم المكي الشريف – مكة المكرمة .

٤٢ - النهاية في غريب الحديث والأثر : ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد (٦٠٦هـ)، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية .

٤٣ - نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق : محمد صبحي بن حسن حلاق، نشر : دار ابن الجوزي – الرياض، الطبعة أولى ١٤٢٧هـ .